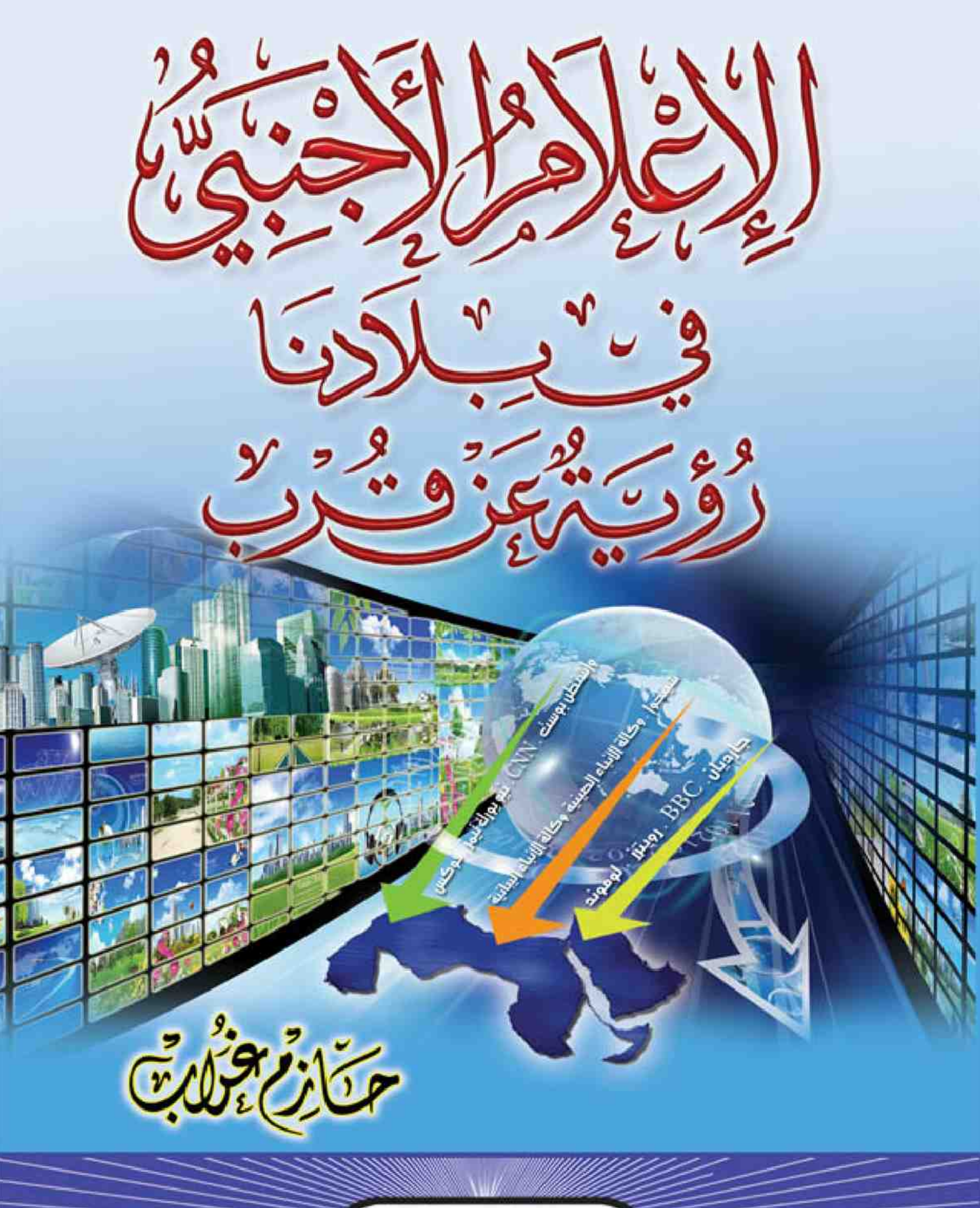
الإعلام الأجنبي في بلادنا

رؤية عن قرب



حازم غراب

دار النشر للجامعات

الإعلام الأجنبي في بلادنا

رؤية عن قرب

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

غراب، حازم
الإعلام الأجنبي في بلادنا .. رؤية عن قرب / حازم غراب- ط1- القاهرة: دار النشر للجامعات، 2011.
128ص؛ 20سم.
تدمك: 9 359 316 977 978
1- الإعلام
أ- العنوان 001.5

* تاريخ الإصدار: 1432هـ -2011م

* الناشر: دار النشر للجامعات - مصر

* رقم الإيداع: 2010/9438م

* الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 316 - 359 - 9

* الكود: 2/326



دار النشر للجامعات
ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
ت: 26347976 – 26321753 ف: 26440094
E-mail: darannshr@yahoo.com

الإعلام الأجنبي

في بلادنا

رؤية عن قرب

حازم غراب


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

جسر بين الثقافات أم أداة للصراع بينها؟

النظرة إلى الصحافة الأجنبيـة لـدى قطاعـات كبـيرة مـن الـرأي العـام العـربي تشـوبها شـكوك وريـب، تصـل في بعـض الأحيـان إلى حـد الاتهـام بالعداء لشعوبنا وثقافتنا العربية الإسلامية، ولكن ذلك لا يمنـع أيضـا مـن أن يكون هناك قطاعـات أخـرى مـن الـرأي العـام العـربي تعطـي للإعـلام الغـربي مصـداقية كبـيرة، وتحـرص عـلى أن تكـون الإذاعـات والفضـائيات الأجنبية ضمن أهم مصادرها الإعلامية؛ وفي سـنوات ماضـية كـان الـبعض يتعلق بأمل: أن يمثل ما ينشر ويذاع في أوروبا وأميركا عن بلادنا - وخاصـة ما يتعلق بحقوق الإنسان- نوعا من الضغط السياسي على الـنظم العربيـة الديكتاتورية، أو تلك التي تتظاهر بالديمقراطية.

ولقد مارست شخصيات متغربة تنتمي لبلادنـا الكتابـة التحريضـية في بعض وسائل الإعلام الأجنبية، كما أفسحت وسائل إعلام غربيـة مسـاحات لرموز متعصبة من الأقليات لنشر أكاذيب ومبالغات وفتن.

ويمكنني القول: إنني عرفت نماذج من أولئك المتعصبين ممن تعـاملوا مع بعض المراسلين الأجانب وأمدوهم بحقائق مغلوطة وبأكاذيب؛ نكايـة في السلطات الظالمة، أو حقدا على هويتنا الحضارية العربية الإسلامية.

ولا غرابة في ذلك، فالحضارة الغربية في نظر الشرق الحضاري لا تقبـل في علاقاتها بنا بغير الاستغلال والهيمنة والسـيادة، ومـا يفرضـه ذلـك مـن أدوات وأساليب التسميم السياسي وإثارة الفتن.

ومما يثير الأسف: أن هناك في الغرب بقيادة أميركا من لايزالون يصرون على استخدام الصحافة والصحفيين الأجانب ضمن أدوات الصراع، هل ينسى أحد قرار القيادة العسكرية الأميركية بإلحاق مراسلين من داخل وخارج أميركا مع قوات غزو العراق في عام 2003؟ لقد استخدمت واشنطن هؤلاء الصحفيين بشكل شبه صريح، إذ لم يكن مسموحا لهم ببث أو إرسال مواد صحفية دون موافقة عسكرية صريحة.

ولعل كثيرين ممن كانوا مسئولي تحرير الصحف ومواقع الإنترنت الإخبارية أو غرف الأخبار في محطات التليفزيون في تلك الأيام يتذكرون أيضا أن وكالات الأنباء العالمية الكبرى جرى استخدامها أميركيا لتسريب أخبار بعينها تحقيقا لأهداف عسكرية بحتة، ويحضرني في هذا المقام مثال لا يقبل الجدل؛ هو خبر بثته الوكالات آنذاك عن سقوط الناصرية وميناء أم قصر جنوبي العراق، ولولا تحريك رئاسة تحرير قناة الجزيرة مراسلا كان موجودا بالبصرة إلى هذين الموقعين للتحقق من صِدقية الخبر بالصور الحية على الهواء مباشرة؛ لكان ذلك التسريب المتعمد والكاذب قد أتى أُكله العسكرية الإستراتيجية مبكرا جدًّا.

وعلى أي الأحوال، فإن التطورات المهنية والتقنية المتلاحقة في عالم الإعلام منذ منتصف العقد الأول في القرن الواحد والعشرين أضحت تفرض على مراسلي الصحافة الأجنبية دورا مختلفا عن ذي قبل، فلم يعد التضليل أو التعتيم ممكنا بنفس السهولة التي شهدتها العقود الأخيرة من القرن العشرين، وإن كانت وسائل الإعلام في الغرب استُخدمت كأداة من أدوات الصراع الدولي، سواء بإرادتها أو بدون إرادتها في الماضي، فلست

أظن أن المستقبل المهني القريب يمكن أن يتسامح مع استمرار إساءة استخدام الإعلام والإعلاميين.

إن عالمنا تتزايد فيه بسرعة اتجاهات التمايز الحضاري برغم ضغوط العولمة، ولقد بدأنا نجد أنفسنا أمام ثلاث حضارات إنسانية، لكل منها ثقافتها وقيمها وتقاليدها، **وأقصد بذلك**: الحضارة الغربية والحضارة الآسيوية والحضارة الإسلامية، ومن الملاحظ أن الحضارات الثلاث تزيد من الاهتمام بشفافية وتوازن ومهنية الإعلام والإعلاميين في كل شعوبها وأقاليمها.

لقد بدأنا نرى بوادر تحرر الصحافة الأجنبية من إرادات النظم الحاكمة وإمبراطوريات المال، لعلنا أيضا نأمل ألا تسمح شرائح المتلقين لوسائل الإعلام أو الإعلاميين أن يكونوا أداة للصراع بين الحضارات بل جسرا بينها.

إن المراسل الأجنبي في بلادنا لكي يحقق دوره في عملية التجسير الحضاري مطالب بكثير من التجرد من القناعات والأفكار المسبقة عن ثقافتنا الإسلامية بصفة خاصة، وهو مطالب كذلك أن يسمو فوق المغريات، وأن يمارس الصحافة خدمة للحقيقة وللرأي العام، ولا يقبل أن يصبح ترسا في ماكينة صراع المصالح بين الدول أو الهيئات.

وعلى الجانب الآخر، فإن أصحاب الحضارة العربية الإسلامية مطالبون بالحرص على توضيح وتقديم ثقافتهم بأنفسهم، وألا يتركوا فرصة للحوار والرد والتصحيح دون انتهازها.

إن الحضارة الإسلامية تهدف من علاقاتها بغيرها من الحضارات إلى إبلاغ رسالة الإسلام ومحتواه، بدون إكراه أو عنف أو قتال لإجبار الناس على اعتناقه، فالقرآن يؤكد: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، وبالإضافة إلى البلاغ يأتي التعارف وما ينتج عنه بالضرورة من تبادل عادل للمصالح، إذ يقول القرآن: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللـه أَتْقَاكُمْ ﴾.

إن القيمة العليا التي يصر الإسلام على أن تسود وتحكم العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقات الأمم والشعوب فيما بينهم هي العدالة، ولا شك أن العدالة هي التي تميز عالم البشر عن عالم الغابة والحيوانات.

* * *

الفصل الأول

من الاستشراق إلى الصحافة الأجنبية

لعلنا نتذكر أن الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة اعتادت قبيل شن حملات الاحتلال إرسال مجموعات استطلاع متقدم، وكان البعض من تلك المجموعات مستشرقين، ولا شك أن من المستشرقين من كانوا يقصدون من وجودهم في بلادنا البحث والدراسة في شئون الإسلام واللغة العربية، لكن ما لا يمكن القطع بنفيه: أن بعض المستشرقين أو المستعربين كانوا جامعي معلومات عن بلادنا وشعوبنا وثقافتنا، خدمة لقوات بلادهم الغازية.

للمفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد أكثر من ثلاثة عشر كتابًا مترجمًا إلى العربية من أشهرها: الاستشراق، وهو يتهم المستشرقين بالتمهيد والتعاون مع الاستعمار الغربي من بداياته الأولى في بلادنا العربية والإسلامية.

أما في كتابه "الإسلام الأصولي" فبعدما يجلي إدوارد سعيد الدور المشبوه للاستشراق، ينتقل إلى ما يشبه التحذير مما يقوم به الإعلام الغربي والأميركي بصفة خاصة في بلادنا، **فلنقرأ نص كلامه في السطور التالية:**

"لقد تلا الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 فترة كادت تقارب العقدين، قام خلالها الباحثون الفرنسيون بتحويل دراسة الشرق من علم أثري قديم إلى علم عقلاني، وكانت هناك طبعا حملة نابليون واحتلاله لمصر

عام 1798، وقد أعد لحملته بضم جماعة رفيعة المستوى من العلماء حتى يضمن لمشروعه المزيد من الفعالية، ولكن رأيـي هـو: أن احـتلال نـابليون لمصر القصير الأجل كان نهاية فصل في كتاب، وبدأ فصل جديـد مـع تـولي سيلفستر دي ساسي شئون المؤسسات الفرنسية للدراسات الشرقيـة، وتلـك حقبة طويلة أصبحت فرنسا خلالها زعيمـة الاسـتشراق في العـالم، وبلغـت ذروة هذا الفصل بعد ذلك حين احتلت الجيـوش الفرنسـية الجزائـر عـام 1830".

ويواصل سعيد: "لا أرغب على الإطلاق أن أدلي بوجـود علاقـة سـببية بين هذين الحدثين، ولا أن أتبنى النظرة المهاجمـة الناقـدة للفكـر القائلـة بأن كل الدراسات العلمية تقود بـالضرورة إلى العنـف والعـذاب، كـل مـا أريد أن أقوله هو أن الإمبراطوريات لا تولد بين عشية وضـحاها، وهـي لا تنظم وتحكم في الأزمنة الحديثة ارتجاليًا، إنني أشك في قدرة إنكلـترا عـلى احتلال مصر بمثل تلك الطريقة المؤسسة جيدًا ولتلك المـدة الطويلـة لـولا ذلك الاستثمار المكين في الدراسات الشرقية الذي كـان أوائـل رواده علـماء بحَّاثة على غرار إدوارد وليام جونز".

أمـا عـن الإعـلام فيقـول: "مـن الواضـح أن الشرق الإسـلامي في غايـة الأهمية اليوم بسـبب مصـادره وموقعـه الجغـرو- سـياسي، وأن الولايـات المتحدة ما انفكـت منـذ الحـرب العالميـة الثانيـة تحتـل مواقـع السـيطرة والسيادة في العالم الإسلامي التي سـبق لبريطانيـا وفرنسـا أن احتلتهـا.. ولم يسبق أبدًا أن غطى الإعلام أخبار أي موقع دولي مضطرب بمثل ما حظيت بـه إيران من متابعة فورية ومنتظمة؛ لذلك ظهرت إيران كأنها موجـودة في حيـاة

الأميركيين لكنها عميقة الغربة عنهم، مع كثافة شعورية حادة لم يسبق لها مثيل".

ويضيف إدوارد سعيد: "لا نبالغ بالقول: إن العرب والمسلمين تتم تغطيتهم الإعلامية أساسًا بوصفهم مورّدي بترول أو إرهابيين محتملين، أما تفاصيل الحياة العربية - الإسلامية والكثافة الشعورية الإنسانية وزخمها النابض فلم يدخل إلا النزر اليسير منها حتى في وعي أولئك الذين احترفوا تغطية العالم الإسلامي والإبلاغ عنه".

(انتهى الاقتباس المنقول عن محرك البحث الإليكتروني جوجل).

وأتذكر هنا اعترافا صريحا كشفه ذات يوم زميل صحفي، كان مراسلا للراديو الهولندي في مصر منذ ثمانينيات القرن الماضي، وقد تزاملنا في عضوية مجلس إدارة جمعية المراسلين الأجانب نحو ثلاث سنوات، وجاء الاعتراف أثناء تقديمي إياه إلى زميل إندونيسي شاب كان قد انضم مراسلا صحفيا إلى جمعية المراسلين بالقاهرة:

كنا على متن حافلة متجهة بنا في رحلة صحفية إلى دير وادي النطرون غرب القاهرة، وبشيء من المزاح قلت للزميل الإندونيسي عن الزميل الهولندي: "إنه من الدولة التي احتلت بلدك". تبسم الشاب الإندونيسي ابتسامة مجاملة باهتة، وكعادة الشرقيين في تجاذب أطراف الحديث سأل الإندونيسي الهولندي: "هل تعرف المستشرق الهولندي سنوك هرخرونيه؟" (وكان ذلك المستشرق حصل على الدكتوراه عام 1879 برسالة عنوانها: "موسم الحج في مكة"، وفي عام 1884 قام برحلته المشهورة إلى الجزيرة العربية، ووصل إلى مكة عام 1885 تحت اسم مستعار

هو: "عبد الغفار" وأقام هناك ستة أشهر، كتب بعدها كتابه عن مدينة مكة، وابتداءً من 1889 عمل في خدمة إدارة المستعمرات الهولندية في إندونيسيا؛ حيث تعرَّف على الإسلام والمسلمين أكثر، وفي عامي 1915/1914 ألقى "محاضرات عن الإسلام" في أميركا عرض فيها نشأة الإسلام والتطور الديني، والتطور السياسي للإسلام، وكذلك الإسلام والفكر الحديث. وعاش سنوك هرخرونيه في إندونيسيا وقد أشهر إسلامه وتزوج من إندونيسية مسلمة).

(نقلت هذا التعريف عن محرك البحث الإليكتروني جوجل) .

ضحك الزميل الهولندي ملء شدقيه وعلق قائلا: "إنه جدي الروحي(!)، ولعلمك فهو لم يسلم". وأضاف بفخر: " لقد عاش هرخرونيه ومات مسيحيا مخلصا".

إن حركة الاستشراق أو "الاستعراب" تبدو للبعض وقد تراجعت شيئا ما في العقود القليلة الماضية، وأنا أزعم صادقا من خلال الاحتكاك المباشر أن أعدادا من المراسلين الصحفيين الأجانب يمارسون علانية المهام الاستطلاعية والاستخباراتية التي كان بعض المستشرقين القدامى يمارسونها.

إن عواصمنا العربية والإسلامية تعج بالصحفيين الأجانب القادمين - في غالبيتهم - من أميركا وأوروبا والدول الآسيوية الكبرى، ويقيم هؤلاء الصحفيون بصفة دائمة في عواصمنا أو يزورونها لفترات تطول وتقصر، **ومن أهم تلك العواصم**: القاهرة، وبيروت، والقدس المحتلة، وأنقرة، وإستانبول، وطهران، وتوجد أكبر تجمعاتهم في القاهرة منذ منتصف

السبعينيات (نحو سبعمائة حسب نسخة عام 2007 من كتاب: دليل جمعية المراسلين الأجانب بالقاهرة. ونصف هذا العدد تقريبا صحفيون مصريون أو عرب).

ويمثل هؤلاء المراسلون الأجانب والعاملون معهم من المصريين وبعض العرب مائة وسبعة عشرة صحيفة، وخمسًا وخمسين مجلة، وتسعًا وثلاثين وكالة أنباء نصية، وتسعًا وثلاثين محطة تليفزيونية، وأحد عشر وكالة صور فوتوغرافية، وثلاثين محطة إذاعية، ويبلغ مجموع الصحف والمجلات والوكالات ومحطات التليفزيون والإذاعة العالمية والعربية التي تتخذ لها مكاتب إقليمية في القاهرة قرابة ثلاثمائة، يعمل فيهما هذا العدد الكبير ما بين مراسل ومحرر ومصور.

وبخلاف الصحف والمجلات العربية التي تتخذ لها مكاتب بالقاهرة، هناك مكاتب أو مراسلون لأربع عشرة صحيفة أميركية، وثمانية مكاتب لصحف يابانية، وستة مكاتب أو مراسلون يمثلون صحفا فرنسية، وخمسة مكاتب أو مراسلون لكل من بريطانيا وألمانيا، وأربعة لإيطاليا، وثلاثة لكل من اليونان وسويسرا وإسبانيا، أما المجلات العالمية فمنها أحد عشر أميركية واثنين لكل من فرنسا وألمانيا.

كنت في بداية أكتوبر من عام 1999 قد حصرت عدد المراسلين الأجانب في القاهرة وكتبت عنهم الخبر التالي، الذي نشرته على موقع إسلام أون لاين:

يقول المراسل الصحفي اليوناني فاسيلي فوتيادس، وهو أقدم صحفي أجنبي مقيم بالقاهرة، وأحد مؤسسي جمعية المراسلين الأجانب: إن عدد

زملائه المقيمين والمعتمدين من السلطات المصرية قبل 1973 لم يزد عن 36 صحفيًا. وبحسب مصادر في هيئة الاستعلامات المصرية التي تنظم عمل المراسلين، وطبقًا لدليل جمعية المراسلين الأجانب؛ فإنه يوجد حاليا (أي في أكتوبر 1999) قرابة 350 صحفيا أجنبيا من معظم دول العالم، ويعمل معهم في المكاتب الدائمة للوكالات والصحف ومحطات الإذاعة والتليفزيون حوالي 200 صحفي مصري وكانت الطفرة العددية المذكورة مرتبطة بما أحدثته حرب أكتوبر من تطورات إقليمية ودولية، ثم ما أسفرت عنه مبادرة السادات بزيارة القدس في نوفمبر 1977، وما تلاها من توقيع اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل ثم معاهدة السلام المصرية-الإسرائيلية.

وتوجد في القاهرة مكاتب لمحطات التليفزيون الأمريكية الكبرى الشهيرة، وهي: CNN-ABC-NBC. بالإضافة إلى الخدمة التليفزيونية لوكالة الأنباء الأمريكية الشهيرة "أسوشيتد برس"، كما يوجد مكتب كبير لإذاعة صوت أمريكا.

ويتصدر الصحفيون الألمان قائمة الصحفيين الأوربيين ويليهم الفرنسيون فالإنجليز.

وتوجد مكاتب لكل من الصحف الألمانية التالية: فرانكفورتر ألجمانيه، تسايتونج، فرانكفورتر راندشو، وسوديتشا تسايتونج، وتاجا شبيجل، ودويتشا زونتاج، ودي فولكس كرانت، ودي تسايت، وتاز برلين. ومجلات: ديرشبيجل، وفوكس، ونيل أكسبريس. وهناك مكاتب دائمة لمحطات التليفزيون الألمانية ARD، ZDF، NDR، بالإضافة للراديو الألماني، ووكالة الأنباء الألمانية المسماة اختصارًا "DPA".

وقد ازداد اهتمام اليابانيين والآسيويين عمومًا بالمنطقة العربية بعد حرب أكتوبر، بسبب اعتماد بلادهم على البترول والغاز، ويتمركز معظم الصحفيين اليابانيين بالمنطقة في القاهرة، بينما يوجد عدد قليل للغاية في طهران والقدس.

أما الموجودون في القاهرة فهم مراسلو صحف: أساهي، ويوميوري، وسانكيه، وطوكيو، ونيكيه، وتشونتشي. ويوجد مكتب لوكالة الأنباء كيودو "Kyodo News"، وآخر لوكالة "جي جي برس Ji Ji. Press ".

ولمحطات التليفزيون اليابانية الكبرى مكاتب بالقاهرة، وهي على وجه التحديد: NHK، وتليفزيون أساهي، وطوكيو، وإن تي في NTV، وفوجي.

وتحرص الصين على تمثيل صحفي معقول، وتأتي وكالة أنباء الصين الجديدة (شينخوا) على رأس وكالات الأنباء العالمية الموجودة بالقاهرة من حيث عدد العاملين الصينيين والمصريين، ومراسل للراديو الصيني. ويوجد لكوريا الشمالية مراسل مقيم في الوقت الذي أغلقت فيه وكالة الأنباء الكورية الجنوبية المسماة (يونهاب) مكتبها في القاهرة لأسباب اقتصادية، وإن قالت بعض المصادر الكورية الجنوبية: إنه سيعود لاستئناف العمل في القاهرة عما قريب.

وترفض مصر حتى الآن افتتاح مكتب لوكالة الأنباء الإيرانية أو لراديو إيران بالقاهرة لأسباب أمنية رغم التحسين البطيء في العلاقات [1].

---

(1) قبل نحو خمس سنوات من صدور هذا الكتاب لم تعترض السلطات المصرية صراحة على افتتاح مكتب لقناة "العالم" الإيرانية. وقد تعرض المكتب لاحقًا إلى "اجتياح" بوليسي بدعوى مخالفة قوانين المصنفات الفنية. ولم تستجب هيئة الاستعلامات والمركزالصحفي لطلب الزميل أحمد السيوفي اعتماد مكتب قناة "العالم" ضمن مكاتب الإعلام الأجنبي بالقاهرة، كما رفضت هيئة الاستعلامات إصدار بطاقة صحفية للسيوفي كمراسل "للعالم" في القاهرة.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق تقلصت الصحافة الروسية بالقاهرة، ولم يبق سوى مكتب متواضع يضم مراسلين لإحدى محطات التليفزيون، ووكالة أنباء إيتارتاس وصحيفة ترود، وبعضهم يمارس -إلى جانب الصحافة- أعمالا تجارية أو سياحية، كي يستطيع تغطية بعض نفقات إقامته بالقاهرة.

لا يظهر أي اسم لمراسلي الإعلام الصهيوني في أي قوائم صحفية معلنة بالقاهرة، ويبدو أن الخوف من احتمالات الاعتداء عليهم هو سبب حجب أسماء بعض الموجودين منهم فعلا، أو قد يكون هناك امتناع ذاتي من جانب الصحفيين الإسرائيليين عن الإقامة الدائمة بالقاهرة لذات السبب الأمني، ولعل قرب المسافة بين فلسطين المحتلة ومصر يساعد الصحفيين الإسرائيليين على التردد المتكرر على القاهرة دون الحاجة للإقامة الدائمة بها". انتهى الخبر الذي سبق لي نشره في أكتوبر عام 1999.

كما كنت في بدايات عام 2000 قد حصلت على قائمة بأعداد وأسماء المراسلين الأجانب المقيمين في العاصمة الإيرانية طهران، وذلك أثناء تغطيتي الانتخابات البرلمانية هناك، وبحسب تلك القائمة كان مجموعهم واحدا وستين مراسلا. وكان عشرة منهم يمثلون وسائل الإعلام اليابانية، يليهم ثمانية عن كل من فرنسا وبريطانيا، فأميركا وكان لها سبعة مراسلين، ثم جاءت بعدها ألمانيا بعدد خمسة، ثم سويسرا ثلاثة، وكان لكل من

الصين وروسيا وتركيا مراسلان، ومراسل واحد لكل من إسبانيا وكوريا الشمالية، أما المراسلون العرب فكان أكثرهم عددا مراسلو فلسطين وسوريا والكويت وقطر؛ إذ كان لكل دولة منهم ثلاثة مراسلين، بالطبع كانت تلك فترة صعود التيار الإصلاحي بقيادة الرئيس السابق محمد خاتمي. ولعل هذا الرقم تقلص كثيرا بعد وصول المحافظين إلى الرئاسة، وقد شاهدنا جميعا مدى الريب والشكوك التي تعاملت بها إيران الرسمية مع المراسلين الأجانب إبان الانتخابات الرئاسية في يوليو 2009.

وقد جرت العادة أن يعمل صحفي محلي أو أكثر في مكاتب الصحافة الأجنبية إلى جانب مديريها ومراسليها الأجانب ما لم يكن الأخيرون مجيدين للغة البلد الذي يبتعثون إليه، ولهذا السبب يقل عدد الصحفيين المحليين العاملين بمكاتب وسائل الإعلام الصينية في بلادنا العربية والإسلامية، إذ يجيد معظم المراسلين الصينيين العربية أو الفارسية أو التركية.

جاسوس شرعي

لست أشك أبدا أن أعدادا غير قليلة من الزملاء المراسلين الأجانب في عواصمنا يمارسون الصحافة بمهنية وأمانة وينقلون الأحداث والأخبار بغرض إطلاع الرأي العام في بلادهم عليها، لكن المقطوع به عندي وربما عند غيري أن قلة من هؤلاء يستغلون المهنة الإعلامية وتسهيلاتها لحساب أجهزة الاستخبارات في بلادهم، بل وربما لحساب الكيان الصهيوني، إن الخبر كأصل لكل المواد الصحفية هو المعلومة والمعرفة "الطازجة"، ولا شك أن تلك المعرفة هي اللبنة الأولى للقوة، إن معرفة الآخر الحضاري

بمجريات وتطورات شئوننا الداخلية معرفة دقيقة ومستمرة يساعد صناع القرارات السياسية والاقتصادية والتجارية في تعاملاتهم مع بلادنا، كما تساعد تلك المعرفة على التنبؤ المسبق بردود أفعالنا كقيادات أو شعوب.

إن المرء لا يستطيع أن ينسى أن يفجيني بريماكوف مراسل صحيفة "برافدا" الشيوعية السوفيتية في القاهرة زمن جمال عبد الناصر كان عميلا لجهاز المخابرات السوفيتي "كي جي بي"، ولعل انتماءه هذا لم يكتشف على نطاق واسع إلا بعد سنوات طويلة من انتهاء عمله كصحفي مراسل، وقد أصبح رئيسا لوزراء روسيا الاتحادية بعد سنوات من انهيار الاتحاد السوفيتي.

وقد أجريت مع مدير مكتب مجلة "دير شبيجل" الألمانية بالقاهرة (فولكارد فيندفور) مقابلة صحفية متلفزة بمناسبة احتفاله في ربيع عام 2005 بمرور خمسين عاما على إقامته وعمله في بلادنا العربية، وتطرقت في نهايتها إلى سؤاله عن رأيه الشخصي في هذه القضية كالتالي: (نص المقابلة موجود ضمن ملاحق هذا الكتاب).

س: يتصور البعض - سواء ممن تسيطر على تفكيرهم نظرية المؤامرة أو غيرهم- أن بعض المراسلين الأجانب يمارسون الجاسوسية وجمع المعلومات لحساب أجهزة المخابرات في بلادهم... ما رأيك في هذا؟

ج: "أنا أعتقد أن دولا كبرى كأميركا وروسيا والصين (ولم يذكر ألمانيا بلده) لهم مصالح خاصة، وهم يستغلون وجود الصحفيين ويستفيدون منهم بأن يتخذوا من بعضهم عملاء... أكيد هناك بدون شك من يؤدي هذا الدور".. انتهى الاقتباس.

لا مشكلة عندي في أن يتعرف علينا الآخر الحضاري معرفة صحيحة ومستمرة عبر القنوات المشروعة؛ وهي الأداة الدبلوماسية بشقيها الرسمي والشعبي، وعبر المراسلين الصحفيين والباحثين الأجانب، ولاتزال ترنُّ في أذني كلمة أستاذنا العظيم د. عز الدين فودة يرحمه الله: "ما الدبلوماسي إلا جاسوس شرعي". كان ذلك في محاضرات مادة الدبلوماسية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في بدايات السبعينيات من القرن الماضي. لكن المشكلة في رأيي هي: أن يتعمد بعض المراسلين تشويه الحقائق التي يعايشونها وينقلونها من بلادنا بغرض تضليل صانع القرار والرأي العام في بلادهم، وبالقدر نفسه فأنا لا أقبل محاولات بعض الجهات الرسمية الحيلولة دون وصول المراسلين إلى الحقائق والوقائع والأخبار، وبالتأكيد يجب منع المراسلين الأجانب من الاقتراب من المعلومات المحجوبة أمنيا، كالأسرار العسكرية.

إن بعض الجهات في بلادنا تحاول أحيانا توظيف أو توجيه المراسلين الأجانب، وهناك من يقبل منهم بهذا الأمر كما أن هناك من يرفضون ذلك ويفضحونه ويحرصون على نقل الحقائق العلنية المجردة، إن هذا السلوك الرسمي الذي تتسم به كثير من ممارسات الحكومات الديكتاتورية أو المتظاهرة بالديمقراطية يضر بعلاقات الشعوب ومصالحها، بل وقد يؤدي إلى أسوأ العواقب في العلاقات الدولية، فلا شك أن التضليل والتشويه يسهم في تأجيج الصراعات أو شن الحروب أو ابتزاز نظم الحكم في بلادنا.

إن التوجس من استغلال بعض المراسلين الأجانب مهنة الصحافة كستار للتجسس يقتضي من حكوماتنا أن تعرف بشكل مسبق تاريخ من

يطلب العمل مراسلا صحفيا في بلادنا، وأن تقوم الجهات المعنية بتحليل محتوى كتابات أولئك المراسلين أو تقاريرهم الصحفية السابقة. ومن جهة أخرى، يجب أن تعرف جيوشنا وأجهزة استخباراتنا كيف تتكتم على ما يعد أسرارا في بلادنا، وأن تتابع الأجهزة الأمنية بمهنية بعض من قد تحوم حولهم شبهات ممارسة الجاسوسية تحت غطاء الصحافة، وفي الوقت نفسه يجب أن تراعي تلك الأجهزة أننا أصبحنا نعيش في عالم يصعب أن يكون لدول العالم الثالث فيه أسرار بالمعنى الضيق للكلمة.

لقد استخدمت الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة والجديدة المؤسسات والكيانات الإعلامية - وليس الصحفيين فحسب- للتأثير على الرأي العام في بلادنا؛ فقد وجهت تلك الإمبراطوريات إلى الشعوب المحتلة محطات إذاعية قوية باللغات المحلية، وقد كان الهدف ولايزال هو غسل أدمغة الناس أو تخديرهم بمواد إعلامية غثة أو ثمينة، فمثلا جندت بريطانيا خدمات إذاعية بعدة لغات بينها العربية (من الـ بي بي سي)، وسلطت أميركا على اليابانيين ودول أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية عدة محطات مشابهة، ولقد نافست إذاعة صوت أميركا الـ بي بي سي على عقول ووجدان الشعوب العربية، ثم أضافت تلك الإمبراطوريات الاستعمارية في العقد الأخير فضائيات عديدة ناطقة بالعربية.

ولا شك أن "الفحيح الإذاعي" الأميركي قد أسهم بقدر ما في سحب البساط من تحت الأرجل السوفيتية الثقيلة في أوروبا الشرقية، فحدث الانهيار الذي كان الأساس فيه فساد الفكرة الشيوعية ذاتها، وخراب ذمم غالبية القيادات الحزبية "الاشتراكية" الحاكمة، لقد استغلت ذلك المحطات

الإذاعية الأميركية الموجهة إلى شعوب أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق.

إن ذات التجربة تتكرر بوتيرة أوضح منذ الغزو الأميركي لأفغانستان والعراق عامي 2001 و 2003؛ فقد سُخرَت كثير من وسائل الإعلام الغربية لمساندة احتلال الجحافل الأميركية والأوروبية منابع الثروة النفطية، ولحماية طرق وممرات نقل النفط والغاز.

وقد بلغ الأمر في العقود القليلة الماضية أن أصبح الإعلام "الموجه" بواسطة القوى الكبرى أحد أهم أذرع وزارات الخارجية أو الدفاع لزعزعة الاستقرار في دول معادية أو حتى حليفة لتلك القوى، وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط العربية اللندنية قبل سنوات ما يؤكد ذلك تحت العنوان التالي:

جدل بشأن تفعيل خطط زعزعة الاستقرار

"كشف مسئولون عسكريون ومدنيون في وزارة الدفاع الأميركية عن أن الوزارة تَدرس اللجوء إلى خططٍ للتضليل الإعلامي والدعاية، على نطاق واسع في العالم، وقال المسئولون الذين طلبوا عدم الكشف عن أسمائهم مراعاة لحساسية الموضوع: إن الخطط المشار إليها إذا أقرت فإنها قد تستهدف كذلك مواطني الدول المحايدة، وربما الحليفة، وحذر منتقدو أسلوب التضليل الإعلامي من أن ذلك الأسلوب قد يقود إلى التشكيك في مصداقية الوزارة، إلى درجة يرفض فيها متلقو الرسائل الإعلامية تصديق أي بيان صادر عنها. **ويقول كبير الناطقين باسم الوزارة**: «إن المعركة القائمة لتغيير الوعي يستخدم فيها الخصم الإعلام بشكل واضح للتأثير في

وعي الجماهير، ودورنا يجب ألا يقوم على تغيير الوعي، ولكن مواجهة ما يقوم به الخصم لتغيير الوعي العام».

ويضيف التقرير المنشور: "وتتضمن خطط الدعاية المطروحة للنقاش: زرع قصص إخبارية في الصحافة الخارجية، واختلاق وثائق مزورة، إضافة إلى إنشاء مواقع باللغة العربية على شبكة الإنترنت من أجل تقويض تأثير الثقافات والهوية المعادية للقيم الغربية.

وأشار مسئولون اطلعوا على تلك الخطط إلى أنها تركز بشكل كبير على منطقة الشرق الأوسط وجنوب آسيا، ولكن حملات الدعاية يمكن أن تستهدف كذلك بلدانا حليفة، مثل ألمانيا على سبيل المثال".

وتواصل الجريدة السعودية اللندنية: "يشار إلى أنه أثناء الحرب الباردة اعتادت الأجهزة الأمنية إدراج أسماء صحفية في كشوف الرواتب أو إرسال عناصر أمنية متخفية بأسماء صحفية، خصوصا في غرب أوروبا، وذلك لنشر مقالات مؤيدة من أجل التأثير على سكان البلدان الأجنبية".

ويقع جزء كبير من هذا العمل تحت مجال غير معروف نسبيًا، ويدعى «الدعم العسكري للعلاقات الدبلوماسية»، وتستخدم هذه العبارة الأخيرة لوصف جهود الاتصال مع أطراف أجنبية". (انتهى الاقتباس).

مطلوب جواسيس مجانا

أما عن استخدام الإعلام كوسيلة صريحة لجمع المعلومات، حتى عبر القراء فقد فوجئت قبل سنوات بالموضوع التالي منشورا على موقع صحيفة "يديعوت أحرونوت" الصهيونية، **كان عنوان الموضوع هو:** إضافة زاوية

خاصة تطالب زوار الموقع بالتعاون معه ومده بالمعلومات تحت زعم التواصل والتفاعل.

وفي هذه الزاوية الجديدة (آنذاك) جاء ما يلي: "هل لديكم أخبار تستحق النشر؟ هل كنتم شهودًا على حدث إخباري؟ هل صورتم حدثًا مهمًّا؟ هل تملكون معلومات لم يسبق نشرها في أي مكان؟ هل واجهتم إخفاقًا يهمكم كشفه؟ احكوه لنا وسنحكيه للجميع!!".

ثم يواصل الموقع إعلانه المشبوه بالقول: "هيئة تحرير "Arabynet.com" ستفحص المعلومات وستنشر ما تراه مناسبًا".

العبارة السابقة تُثير الكثير من علامات الاستفهام، وتثير الريبة والشك أيضًا، فقد ذكر الموقع هنا كلمة "معلومات" ولم يذكر "أخبار"، وهذه الكلمة- أي: "المعلومات"- هي المصطلح الأشهر في جهاز الاستخبارات الصهيوني "موساد" وبقية أجهزة الاستخبارات الصهيونية؛ حيث إنَّ أجهزة الاستخبارات في الكيان الصهيوني يُطلق عليها أجهزة المعلومات أو جمع المعلومات، كما أنَّ جهاز المخابرات العسكرية الصهيوني يُسمى "شعبة المعلومات" ويطلق عليه اختصارا كلمة "أمان".

وفي هذه الزاوية يطلب الموقع تسجيل بيانات من وافق على التعاون معه، بما في ذلك أرقام الهواتف والبريد الإليكتروني للتواصل معه، عسى أنْ يكون مصدرَ معلومات مهمًّا، **أو بمعنى أوضح**: "جاسوس مهم"!!

وتجدر الإشارة إلى: أن كافة الصحفيين الصهاينة قد خدموا في مختلف الوحدات العسكرية داخل جيش الاحتلال الصهيوني، ونسبة كبيرة منهم

قد خدموا في الشعب الأمنية والاستخباراتية المتعلقة بجمع المعلومات، والتي أهَّلتهم للعمل الصحفي!!

الدعوة عامة

ولم يتوقف الأمر عند دعوة الأفراد، بل هناك دعوة أيضًا للمنظمات والمكاتب والشركات، وخصص لها الموقع استمارة خاصة بالتعاون معه حتى تكون "دعوة التجسس" هذه عامة وشاملة دون تمييز!!

وفي نهاية الدعوة وضع الموقع تعهدا مكتوبا يقرُّ به الشخص أو المؤسسة بالأمانة "التجسسية" في نقل المعلومات والأسرار على النحو التالي: "أصرح بهذا: بأن المعلومات التي أدليتُ بها صحيحة ودقيقة، وأن حقوق الملكية وحقوق نشر المواد التي أرسلتها إلى موقع "Arabynet" بواسطة هذا النموذج، تعود لي أو للجهة التي أمثلها".

ويتابع الموقع في التعهد الذي نشره:

"أدرك أنَّ إرسال هذه المواد إلى موقع "Arabynet" يشكل تصريحًا مجانيًّا، شاملًا وغير محدود زمنيًّا باستخدام المادة المرسَلة، وكذلك تصريحًا بنشرها في كل مكان وزمان يراه موقع "Arabynet" مناسبًا، وتصريحًا يتيح للموقع استخدام المادة بالطريقة التي يراها مناسبة، بما في ذلك السماح له بتحويلها إلى جهة ثالثة، أعرف وأوافق على أنني لا أستحق أي مقابل، مالي أو ما يقابله، تلقاء تسليم المادة المرسَلة، وأن موقع "Arabynet" غير ملزم بنشر اسمي كمصدر للمعلومات"، واستثنت الاستمارة في الجزئية الخاصة بنشر اسم "الجاسوس "مرسل الصور أو"المادة الإبداعية" التي لم يحدد الموقع أيضًا ماذا يقصد بها؛ حيث جاء في الاستمارة (باستثناء نشر اسم

صاحب الامتياز على صورة أو على مادة إبداعية!!).

وفي نهاية الاستمارة يعطي "الجاسوس" كل الحقوق للموقع في فحص و تعديل أو تغيير المعلومات على النحو التالي:

"أصرِّح بأنني أوافق على فحص المادة المرسَلة، وأعرف أنَّ هيئة التحرير غير ملزمة بنشرها، كما أصرح بأنني وافقت على إجراء تغييرات وعلى تحرير المادة، إذا كنت أوقع هنا باسم منظمة ما فإنني أصرح بأنني أملك صلاحية المصادقة والالتزام باسم هذه المنظمة". (انتهى الاقتباس).

صحفيان من "الجزيرة نت"

الجدير بالذكر في هذا المقام أن اثنين من الصحفيين السابقين في الجزيرة نت وقعا في هذا الكمين أو اختارا أن يقعا فيه يوما ما في أوائل عام 2002 ، أو بالأحرى أنه تم اكتشاف أمرهما في ذلك الوقت؛ فقد كان للموقع الصهيوني المذكور نسخة باللغة العربية وتصادف أن أحد مسئولي التحرير في موقع الجزيرة نت فوجئ بمقالات بتوقيع هذين الصحفيين العاملين في الموقع منشورة على الموقع الصهيوني، الرجل بادر بلطف بالتحذير من مغبة ذلك، وأن عقد العمل المبرم مع الجزيرة لا يسمح لصحفييها بالكتابة لدى جهات أخرى إلا بإذن مكتوب من إدارة المحطة.

كان لخبر مساهمات هذين الصحفيين العربيين في موقع الصحيفة الصهيونية وقع الصاعقة على جميع صحفيي الجزيرة تقريبًا، فضلا عن مديرها في ذلك الوقت (محمد جاسم العلي)، وكان أحد هذين الصحفيين يمني الجنسية سبق له العيش في الولايات المتحدة، أما الثاني فكان بَحْرِيْنِيا. ودفاعا عن نفسه لجأ الصحفي اليمني إلى تكتيك الهجوم خير وسيلة

للدفاع، فانطلق إلى مكتب النائب العام القطري متهما أحد مديريّ التحرير في الجزيرة نت بتهديده، وضم في شكواه صحفيا أو أكثر ممن ظن أنهم يروجون لخبر مراسلته موقع الصحيفة الإسرائيلية.

مؤلف هذا الكتاب فوجئ باستدعاء من مكتب النائب العام بشأن الشكوى. ذهبت باعتباري شاهدا وأدليت بشهادتي، وقلت فيها: إنني أبلغت رئيس التحرير (القطري الجنسية وقتذاك)، وظننت أنه سيتخذ قرارا بشأن الواقعة. وبعد أيام حفظ النائب العام القطري الشكوى.

فوجئ الجميع في الجزيرة أن الصحفي اليمني اتصل بالسفارة الأميركية مدعيا تعرضه للاضطهاد، ولم تمض أيام حتى قدم المذكور وزميله البَحْرِيني استقالتيهما وغادرا الدوحة إلى واشنطن، وهناك تم تعيينهما فورا في موقع ومحطة إذاعة سوا الأميركية الناطقين بالعربية، وقد حاول هذان الصحفيان قبيل سفرهما استقطاب أو إغراء زميل لهما بالجزيرة نت (مسيحي أردني من أصل فلسطيني) لينضم إليهما؛ فعرضا عليه أن يصاحبهما في زيارتهما لمندوب الـ "إف بي آي" بالسفارة الأميركية في الدوحة، إلا أن الزميل المسيحي أبى أن يجاريهما وأصرَّ على التمسك بالعمل في الجزيرة نت، (علمت من ذلك الزميل فيما بعد أن المسئول الأمني الأميركي هو من أعد ترتيبات انتقال هذين الصحفيين إلى أميركا وليس الملحق أو المستشار الإعلامي بالسفارة).

* * *

نموذجان: ألماني وبريطاني

اعتدت ألا أقطع الصلة بيني وبين الزملاء الأجانب الذين عرفتهم عن قرب، ولهذا زرت في أوائل يونيو 2009 "فولكارد فيندفور" رئيس جمعية المراسلين الأجانب ومدير مكتب المجلة الألمانية الشهيرة "دير شبيجل" في القاهرة، تجاذبنا أطراف الحديث، وكان اللقاء بعد يوم واحد من فوز تحالف الرابع عشر من آذار (مارس) في لبنان بالأغلبية البرلمانية في مواجهة تحالف حزب الله والعماد عون، وبمزاح مخلوط بالجدية **قلت لفيدنفور**: "تهانيَّ لكم في "شبيجل" بهذه النتيجة السارة لكم وللغرب عموما، فقد كان لخبركم إبان حملة الدعاية الانتخابية اللبنانية عن تورط حزب الله في اغتيال الحريري دور ما في ترجيح كفة طرف على الآخر". (احتفت كثير من وسائل الإعلام العربية واللبنانية المناوئة لحزب الله بهذا الخبر عدة أيام، اعتقادا منها أنه يخصم من سمعة وشعبية المعارضة اللبنانية في المعركة الانتخابية). **من فوره رد فيندفور**: "مش أنا ... لا علاقة لي شخصيا بهذه القصة". ثم استطرد متداركا كمن يخشى أن أسجل عليه وعلى مؤسسته "موقفا". **فقال**: "لا تنسى أن "شبيجل" إمبراطورية إعلامية، وهي تسقط حكومات أحيانا".

وقبل سنوات قليلة ولعله في 2006 أو 2007 - لا أذكر بالضبط - فوجئت بفيندفور يطلبني في الدوحة ويلح في طلب وساطتي لدى الشيخ القرضاوي كي يقبل إجراء حوار مع مجلة "دير شبيجل". قبل الشيخ بإجراء المقابلة برغم مشاغله العديدة، وفي اليوم المحدد أخذت فيندفور وزميل من المجلة جاء معه إلى حيث استقبلنا الدكتور القرضاوي بترحاب،

وقد أجاب عن أسئلة فيندفور وزميله "زاند" الذي يكني نفسه أبـو النـور، ربما تقليدا لفيندفور. (الذي يكني "أبو صلاح" **ويقول:** إن ياسر عرفات هو من خلع عليه هذه الكنية باعتبـاره كـان صـديقا أو متعاطفـا مـع مأسـاة الفلسطينيين).

فهمت من الزميلين أن إماما في أحـد مسـاجد بـرلين كـان قـد أتعـب سلطات ألمانيا بآراء متشددة وسط الأقلية الألمانية المسـلمة، ولهـذا أرادت "شـبيجل" أن تسـتنجد بمقابلـة مـع الشـيخ القرضـاوي باعتبـاره ممثـل الوسطية الإسـلامية ويحظـى بـالاحترام بـين قطاعـات كـبرى مـن مسـلمي العالم، لست أتذكر الآن تفاصـيل قضـية الإمـام الألمـاني الـتركي الأصـل مـع السلطات الألمانية، ولكن ما أتذكره جيدا أنني شـددت عـلى فينـدفور أن يلتزم بدقة بما ينقله عن الشيخ القرضاوي، فوعد بذلك.

وبعد مرور أسابيع قليلة تصادف أن زرت القاهرة في أجـازة، فهاتفـت فيندفور وطلبت منه نسخة من عدد "شبيجل" الـذي نشرت فيـه مقابلـة القرضاوي. وكنت قـد قـرأت في بعـض المواقـع العربيـة عـلى الإنترنـت أن عبارات مما قاله القرضاوي قد جرى تحريفها، لم أشـأ أن أنـاقش فينـدفور في ذلك، لكني حصـلت عـلى نسـخة العـدد ودفعـت بهـا إلى شـخص مـن معارفي يجيد اللغة الألمانية. طلبت منه ترجمة المقابلة وبيـان مـا إذا كـان فيها تحريف لبعض مواقف وآراء القرضاوي المعروفـة مسـبقا، ومـن سـوء حظ فيندفور أن أثبت المترجم نوعا من التحريف، خاطبت فينـدفور فـورا أو لعلني قابلته لاحقا وواجهته، فتعلل بعلل غير مقنعة، وبعد عـودتي إلى الدوحة قدمت اعتذارا لسكرتارية الشيخ القرضاوي.

مرت عدة أشهر أو ربما سنة وإذا بفيندفور يطلب مقابلة أخرى مع الشيخ القرضاوي، فلم يكن مني إلا أن أبلغت مكتب الشيخ مذكرا بالتحريف في المقابلة السابقة، وبالطبع رفض الشيخ الطلب، وبإبلاغي فيندفور **سارع بالقول:** إنه مستعد للاعتذار شخصيا للشيخ، ولكن رد القرضاوي ظل هو الرفض.

وقد تذكرت بعد ذلك مقابلة لحساب "شبيجل" مع الرئيس مبارك، أظنها جرت في منتصف التسعينيات، فقد حشر فيها فيندفور سؤالا لا يمكن أن أنساه في نص المقابلة التي نشرتها الأهرام بالتزامن مع شبيجل، السؤال دار حول موقف الدولة المصرية من المتطرفين الذين كانت بدايتهم عام 1928، **بالطبع كان المقصود هم:** حركة الإخوان المسلمين، وفي وقت إجراء المقابلة كانت السلطات المصرية تشدد من حملتها على نشطاء وقيادة الإخوان، ولك عزيزي القارئ أن تفهم ما تراه من هذه الطريقة في التحريض المبطن أو الصريح من جانب من يعتبر عميد المراسلين الأجانب على الحركة الإسلامية.

وهنا لابد لي أن أستحضر المثال العكسي أو الإيجابي لزميل أكثر مهنية في التعامل مع الظاهرة الإسلامية، وأعني به مدير مكتب وكالة رويترز في القاهرة في الفترة ذاتها وهو جوناثان رايت، لقد كاد يشتبك مع مسئول إعلامي كبير وهو يغالط ويتهم الإخوان بالعنف، وسأورد ملابسات ذلك في موضع تال من هذا الكتاب.

سؤال متجدد: ماذا جاء بهم؟!

في مؤتمر صحفي بالدوحة عقب قمة مصغرة عقدت في فبراير 2009 بمناسبة العدوان الإسرائيلي على غزة، حدث أن سألت رئيس الوزراء القطري حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني سؤالا يتعلق بالمدى الزمني لقرار بلده تجميد عمل المكتب التجاري الإسرائيلي في قطر، وفوجئت بالرجل يبادرني بسؤال، معلقا على كوني مراسلا لصحيفة يابانية في المنطقة: "ما لليابان ببعد مسافتها وهذه المنطقة المضطربة من العالم؟ ما الذي جاء باليابانيين إلى هنا؟" ... فاجأني رده على سؤالي بسؤال، لكنني رددت عليه قائلا: إن ما جاء بي وباليابان إلى هنا هو: النفط. وبعد برهة قبل أن يستكمل رده عليّ عاد يسألني مندهشا: ماذا قلت؟ النفط؟ وعندئذ أدركت أن ردي بكلمة واحدة كان مقتضبا أكثر من اللازم فأوضحت قائلا: إن النفط والغاز هما عصب حياة وتقدم اليابان، ولهذا يهتمون بمنطقتنا فيرسلون صحفييهم أو يكلفون صحفيين محليين لمتابعة مجريات الأحداث وللاطمئنان على الاستقرار في بلادنا حرصا على مصالحهم.

إذن، فثمة أسباب عدة تجعل بلادنا منطقة جذب شديد للإعلام الأجنبي القادم في غالبيته من أميركا وأوروبا وعدد قليل من دول الشرق الآسيوية الصناعية. ويأتي على رأس هذه الأسباب ثروات منطقتنا وموقعها الإستراتيجي، ولا شك أن تطورات الصراع مع العدو الصهيوني تعد هي الأخرى من أسباب وجود مئات الصحفيين الأجانب في بلادنا.

وللمراسلين الأجانب كجامعي أخبار ومعلومات عدة مزايا يمتازون بها على الدبلوماسيين والباحثين الأجانب، فضلا عن الجواسيس فيما يخص المعلوماتية وإدارة العلاقات بين الدول:

1- فالمراسل الصحفي يعد في الحياة الدولية المعاصرة واحدا من أهم المصادر العلنية التي تمد صانعي قرار السياسة الخارجية بالمعلومات الآنية والسريعة والمستمرة.

والمقصود بصنع أو اتخاذ قرارات السياسة الخارجية هو: الإعداد والتجهيز لعمليات وأنشطة من شأنها تحقيق مصالح الدولة إقليميا ودوليًا وعبر الهيئات والمنظمات الإقليمية والدولية، وتختلف عملية صنع القرار الخارجي من دولة إلى أخرى حسب النظام السياسي لكل منها وحسبما يتوفر لديها من أدوات القوى الناعمة والقوى الخشنة.

وفي كل دولة توجد مجموعتان أساسيتان تسهمان في صنع السياسة الخارجية: المؤسسات الرسمية والمؤسسات غير الرسمية. **الأولى**: أهمها السلطة التنفيذية وأدواتها ورموزها، بدءا من قمة هرم السلطة ومرورا بوزير ووزارة الخارجية، وأجهزة المعلومات الدبلوماسية، والاستخباراتية، والعسكرية، ثم السلطة التشريعية، أي: البرلمان وبالذات لجنة الشئون الخارجية ولجنة الأمن القومي. أما **المجموعة الثانية**: أي: المؤسسات غير الرسمية، فتشمل: مجموعات الدبلوماسية الشعبية كالأحزاب والنقابات المهنية والعمالية، والشركات عابرة الحدود وجماعات المصالح، وأجهزة الإعلام، والرأي العام، ومن هنا يأتي دور المراسل الأجنبي المقيم أو الزائر.

إن ما ينقله المراسلون الصحفيون الأجانب من أخبار وما يجمعونه من معلومات علنية وغير علنية وما يفسرونه من مواقف الحكومات والقوى السياسية في الدول التي يعملون بها، يغذي متخذي القرار في السياسة

الخارجية لدولهم، أولا بأول، ربما بأسرع مما تفعله أجهزة الاستخبارات وما ترسله البعثات الدبلوماسية من تقارير.

لنقرأ المقال التالي الذي نشره الزميل بلال فضل في جريدة "المصري اليوم" في السادس من أغسطس 2009 لندرك كيف ينجح المراسلون الأجانب في هتك أستار مستويات عليا من مؤسسات وشخوص الحكم في بلادنا، ومن ثم كيف يستثمر صناع القرار في الدول الكبرى ما يصل إليه المراسلون من أسرار ومواضع الزلل والضعف والفساد الرسمي لكي يتم الضغط على الحكام أو ابتزازهم:

يقول بلال فضل في عاموده المعنون "اصطباحة": "لدينا عشرات القنوات الفضائية ومئات الصحف والمجلات وآلاف الأبواق الإعلامية التي تغطي سقف وأرضية وحيطان العالم العربي، ومع ذلك لاتزال الصحافة الأجنبية وحدها الأقدر على نشر أسرار وأخبار قادتنا وزعمائنا.

منذ أيام نشرت مجلة «الإيكونوميست» تقريرًا خطيرًا عن مستقبل الخلافة في مصر في ظل ما سمته «تطورات صحة الرئيس مبارك»، للأسف لن تجرؤ صحيفة مصرية على نشره كاملًا بدون تصرف أو حذف أو تخفيف، ولو فعلت لرفعت لها القبعة ثم قرأت لها الفاتحة تضامنا، وفى حين تعيد صحافتنا الحكومية نشر أي «بُقّ إيجابي» تنشره الصحف العالمية مصحوبا بالطبل والزمر، هاهي تتجاهل الإشارة إلى تقرير «الإيكونوميست»، ولو حتى من باب تفنيده وتنبيه قادة البلاد إلى خطورة تجاهله على الاقتصاد القومي، خاصة وقد نشرته أهم مجلة اقتصادية في العالم.

في نفس الأسبوع نشرت مجلة «نيو ستيتمنت» الإنجليزية الرائعة تقريرًا ضخمًا وخطيرًا عن القواعد العسكرية الأمريكية في العالم وعلى رأسه طبعا العالم العربي، في الوقت نفسه الذي كان بعض المسئولين العرب يتباهون فيه برفضهم للقواعد العسكرية الأجنبية، التفاصيل التي نشرتها المجلة تدعو للفزع والخجل، وبالطبع لن يجرؤ أحد في الوطن العربي على نشرها أو حتى التعليق عليها لأسباب لا تخفى على فطنتك أو حتى غفلتك.

قبلها وعلى مدى أسابيع متفرقة، نشرت صحيفة «صانداي تايمز» الشهيرة تقارير مفزعة عن حكامنا العرب لم نسمع لها ركزا في صحافتنا.

خذ عندك مثلا: قصة عن زعيم كبير رفع قضية على صحيفة أوغندية كشفت علاقته العاطفية الملتهبة بأرملة ملك إحدى الممالك الأوغندية، لدرجة أنه اشترى لها طيارة خاصة بأموال الشعب الزاحف.

قصة أخرى عن حاكم إمارة عربية اشترى في منطقة دلهام البريطانية مساحة كبيرة من الأرض تشمل مزارع وغابات و39 منزلا بمبلغ 45 مليون جنيه إسترليني، يعد رقما قياسيا في تاريخ العقارات في بريطانيا، كل ذلك لكي يضمها إلى منطقة أملاكه المجاورة، والتي تبلغ 3 آلاف أكر من الأراضي الزراعية، وذلك لكي يستمتع هو وأصدقاؤه بالصيد خلال أجازاته.

بعدها بثلاثة أسابيع نشرت الصحيفة تحقيقا مطولا عن الدعارة في تلك الإمارة العربية التي تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية على أي شخص عربي يختلي بسيدة خلوة تعتبرها السلطات غير شرعية، بينما تغض الطرف عن نوادي الدعارة المخصصة للأجانب والتي يتم استقدام فتيات من

الجمهوريات الإسلامية التابعة سابقا للاتحاد السوفييتي، تحدثن لمراسل الصحيفة عن ظروفهن التي جعلتهن يلجأن للعمل في الدعارة، وأجمعن كلهن على أنهن لا يفضلن العمل مع العرب لجلافتهم وتعاملهم السادي وغير المتحضر معهن أثناء المعاشرة (هكذا بالنص).

لم تفزعني الفضائح التي نشرها التقرير، فقد استمعت قبله إلى حواديت كثيرة عن الدعارة في دول كثيرة تخفى عفن مجتمعاتها خلف أقنعة زائفة من التدين، ما أفزعني حقا تقرير خبري نشرته الصحيفة نقلا عن قادة المخابرات الإسرائيلية، حول اتفاق عقدته إسرائيل مع دولة عربية كبرى، لكي توفر هذه الدولة لإسرائيل ممرات جوية آمنة خلال أي ضربة إسرائيلية متوقعة للمنشآت النووية الإيرانية، وذلك بعد لقاءات عقدها رئيس الموساد الحالي مائير داجان مع مسئولين في هذه الدولة سبقتها لقاءات سرية عقدها إيهود أولمرت قبل رحيله مع مسئولي تلك الدولة التي تملك سفارتها في لندن، بالتأكيد، اشتراكا في «صنداي تايمز»

ومع ذلك لم ينبس مسئول فيها ببنت شفة ردًّا على ما نشر، قبلها بأسبوع كانت مجلة «نيوزويك» الأمريكية قد نشرت تقريرا عن الانتخابات اللبنانية الأخيرة قال فيها مسئول بهاتك الدولة لمحرر المجلة متبجحا: إن بلاده أنفقت على من تساندهم في الانتخابات اللبنانية أضعاف ما أنفقه أوباما على حملته الرئاسية، ولم يجرؤ أحد على تكذيب ما نشر، وطبعا لم يطالب أحد بمحاسبة الذين ذهبت إليهم تلك الأموال المشبوهة في لبنان.

ستسألني: لماذا تلوم الصحافة العربية على صمتها وجُبنها إذا كنت نفسك قد جَبُنت عن ذكر أسماء الدول العربية التي تحدثت عنها الصحف

الأجنبية؟، صدقني لم أمتنع عن النشر جُبنا أو عجزًا، بل لأنني أعرف أنه حتى لو جُنّت إدارة تحرير هذه الصحيفة وطاوعتني في النشر، فلن أدفع أنا والصحيفة فقط ثمن النشر، بل سيدفع ثمنه معنا وقبلنا المواطن المصري الذي يعمل بشرف وكَدّ في تلك الدول العربية، والذي يستأسد عليه حكامها كلما نشرت الصحافة المصرية ما يضايقهم، بينما لا يجرءون مثلا على مس شعرة من رأس بريطاني كلما فضحتهم صحافة بلاده". (انتهى الاقتباس).

2- ويسهم المراسل الصحفي الخارجي في تشكيل مواقف الرأي العام في بلاده تجاه القضايا الدولية.

إن ما يرسله مراسلو الصحف ووكالات الأنباء والفضائيات العالمية ومواقع الإنترنت الإخبارية يسهم بشكل قطعي في تشكيل مواقف الرأي العام الذي يضغط بدوره على دوائر صنع القرار الخارجي في كل دولة.

والرأي العام في تعريفي المبسط: هو الموقف الجمعي للجمهور تجاه قضايا أو قرارات داخلية أو خارجية في الدولة أو المجتمع، ولا تملك السلطة الحاذقة إلا أن تأخذ ضغوط الرأي العام الداخلي والخارجي في حسبانها عند اتخاذ قرارات سياسية بعينها في وقت محدد أو أزمة بعينها.

إن تجاهل السلطة للرأي العام قد ينتج عنه ردود فعل سلبية أو تحركات احتجاجية، ومن ذلك التظاهرات والاحتجاجات التي قد تسفر عن خسائر مادية، أو قد تؤدي إلى عدم الاستقرار، وربما إلى سقوط النظام ذاته.

3- يسهم المراسلون الأجانب في تشكيل الصور الذهنية النمطية لدى جمهور بلادهم عن شعب أو حزب أو جماعة بعينها، ويليهم في الترتيب الدبلوماسيون والباحثون الأجانب المتخصصون في متابعة ومراقبة ودراسة أوضاع الشعوب الأخرى.

(كما تعد الأقليات والجاليات العربية والمسلمة في الخارج مصدرا آخر للمعلومات والانطباعات التي تشكل صورتنا لدى الآخر الحضاري، فضلا عن الأنشطة الدبلوماسية والثقافية الدعائية التي تقوم بها سفاراتنا في الخارج).

وهناك كتابات صحفية أجنبية عن شئوننا تتسم أحيانا بالضحالة المعرفية ونقص المعلومات لأسباب عديدة منها:

* عدم إجادة كثير من الصحفيين والدبلوماسيين والباحثين الأجانب اللغة العربية.

* قلة وتواضع مستوى الترجمة الصحفية من العربية إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات الحية.

* الدور السلبي الذي مارسه بعض المستشرقين والباحثين الأجانب في عصور سابقة.

* حالة الاستلاب الفكري والانبهار الحضاري التي يقع فيها عدد غير قليل ممن يحتكون بالمراسلين الأجانب أو يساعدونهم مهنيا من بلادنا.

وقد يلتمس البعض الأعذار للزملاء المراسلين الأجانب في هذا الصدد:

* فهناك سياسات تحريرية مفروضة عليهم من إداراتهم.
* وهناك قيود محلية في بلادنا قد تعرقل وصولهم إلى مصادر المعلومات الموثقة.
* وهناك انحيازات لاسترضاء أصحاب المصالح والمعلنين في المقر الرئيسي لوسائل الإعلام الأجنبية، وعادة ما يضغط أصحاب المصالح والمعلنون الكبار على السياسات التحريرية بشكل مباشر أو غير مباشر.
* وهناك ضيق المساحة المخصصة للشئون الخارجية في وسائل الإعلام الأجنبية، مقارنة بالأحداث الداخلية.
* وهناك الأخطاء المهنية غير المقصودة المترتبة على المنافسة في تحقيق السبق الصحفي.
* وهناك اتساع النطاق الجغرافي المطلوب من المراسل تغطيته.
* وهناك مشكلة تباين مستوى كفاءة المراسلين أنفسهم (كتواضع قدرة بعضهم على التواصل مع المصادر).
* وهناك آثار قلة الميزانيات المخصصة للمكاتب الخارجية أو المراسلين من مؤسساتهم الصحفية.
* وهناك الخوف من الاتهام بالعداء للسامية أو للصهيونية أو للهولوكوست.

العلاقة بالأمن القومي

أظن أن معظم الأجهزة المعلوماتية والاستخباراتية في البلاد العربية تتعامل بقدر من الارتباك مع المراسلين الأجانب، وقليلة هي الدول العربية

التي استطاعت أن ترسي تقاليدا تتيح حرية العمل الصحفي الأجنبي فيها، وفي الوقت نفسه ترصد وتكشف من يستغلون مهنة الصحافة كغطاء أو ساتر للعمل التجسسي.

إن مصادر المراسلين الأجانب في أي دولة متعددة ومعروفة، وثمة مصادر عامة علنية لا قلق منها على الأمن القومي، أهم تلك المصادر: وسائل الإعلام، ووكالات الخدمات الصحفية المحلية، والمؤتمرات والدعوات الصحفية التي يبادر بها الساسة والرسميون وغيرهم، وهناك الأحداث الجارية التي تقع ويسمح فيها بوجود الصحفيين الأجانب كالحروب، والنزاعات، والكوارث، والاغتيالات، والتفجيرات.

وهناك المصادر الخاصة التي يعتمد عليها المراسلون، وتتنوع حسب أهمية ووزن الوسيلة الإعلامية وحسب كفاءة المراسل، من ذلك: شبكة العلاقات التي ينجح الصحفي الأجنبي في إقامتها وزيادتها، والمقصود مصاحبة بعض كبار وصغار الرسميين والساسة والشخصيات الحزبية والمهنية والثقافية، ويتم تمتين هذه الشبكة بإجراء المقابلات والأحاديث الصحفية "التلميعية" وبالمجاملات وبالهدايا أو المكافآت المادية وغير المادية كالدعوات إلى حفلات الغداء والعشاء والمناسبات الدينية أو الرحلات.

ويحدث أن توظف بعض الوكالات الكبرى مخبرين صحفيين غير معروفين وغير علنيين؛ لإمدادها بالأخبار أولا بأول مقابل أجر ثابت أو بالقطعة، وفي العقدين الماضيين تنبهت بعض القوى السياسية والأحزاب والاتحادات الطلابية والنقابات والجمعيات الأهلية إلى ضرورة التراسل والتواصل مع ممثلي الإعلام الأجنبي المقيمين، سواء عبر البريد الإليكتروني

أو الفاكس أو بالزيارات إلى مكاتبهم أو دعوتهم لحضور بعض الفعاليات والتظاهرات الكبرى.

وتحرص بعض السفارات الأجنبية الموجودة في بلادنا على لقاءات شبه منتظمة مع صحفيِّ بلادها المقيمين والزائرين؛ بغرض تبادل المعلومات والآراء. وهناك مراسلون أجانب يحرصون أشد الحرص على ذلك التقليد. وهناك عكس ذلك، أي: علاقة تنافر وانتقاد كل طرف للطرف الآخر.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن: مصر تعد من أكثر الدول العربية تسامحا وانفتاحا مع المراسلين الأجانب، وبرغم ذلك تشهد العلاقة في أوقات التوتر والتأزم السياسي الداخلي تصاعد الاتهامات لبعض الصحفيين الأجانب، وأحيانا يتم طرد بعضهم عقابا على مواقفهم شبه المتعاطفة مع المعارضة والمعارضين.

وأتذكر هنا كيف حمل الرئيس الراحل أنور السادات قبل أيام من اغتياله عام 1981على بعض المراسلين الأجانب، فقد اتهم علانية اثنين من المراسلين السوفيت بالوقيعة بين الدولة والجماعات الإسلامية، ولنقرأ نص ما قاله في خطابه في الأول من أكتوبر 1981 حسبما نشرته "الأهرام":

" الوكر بتاع الهرم اللي مسكناه لقيناهم اتنين صحفيين سوفيت قاعدين... وصلوا لتحليل: أنه لا الشيوعية لها قيمة في البلد، ولا الرجعية والوفد وكلام الانتهازية ودعاة الناصرية ولا حد من دول له قيمة". ثم يضيف السادات أن المراسلَين السوفيت توصلا في التحليل إلى أن: "اللي حيطلع - (أي: من لهم شعبية ويتقدمون على الساحة أكثر) - هم الجماعات الإسلامية، إذن، نشتغل ورا الجماعات الإسلامية علشان نوقعهم في الدولة

ونوقع المسلمين في المسيحيين، يقوموا يضربـوا في بعـض، والشـيوعية هـي اللي تكسب في الآخر".

وفي أعقاب ما عرف بالفتنة الطائفية واعتقال السلطات المصرية جمع كبير من المعارضين، دعـا السـادات المراسـلين الأجانـب إلى مـؤتمر صـحفي عقده في بيته الريفي في ميت أبو الكوم بالمنوفية، في هـذا المـؤتمر هـاجم الرجل بعض المراسلين الأميركيين والأوروبيين، **وعندما سأله مراسل جريـدة لوس أنجلوس تايم**: ماذا عن رد الفعـل العـالمي عـلى التطـورات الأخـيرة؟ وما هو ردكم على الانتقادات الخاصة بذلك؟ (أي اعتقالاته أكثر من ألـف وخمسمائة من المعارضين والرموز الدينية والوطنية المستقلة).

رد السادات منفعلا: "حسنا ..لقد قرأت تلك الجرائـد الأجنبيـة (التـي وجهت له تلك الانتقادات)، وأكثر من ذلك قرأت مـا بثتـه ثـلاث شـبكات تليفزيون في الولايات المتحدة، دعني أقل لك بكل صراحـة: إن مسـئوليتي الأولى هي تجاه أمتي في المقام الأول، لكن دعني أقل لـك بـالتوازي: إننـي أشعر أنني مسئول أمام هؤلاء الذين ساندوني... كل غرب أوروبا.. بريطانيا العظمى.. الولايات المتحدة... إنني أشعر أنني مسئول أمامهم تمامـا مـثلما أشعر تجاه شعبي... وأحيانا يتعين على المرء أن يجـري جراحـة وفي بعـض الأحيان أن يبتلع حبوبا مرة، ولكن أريدكم (المراسلون) أن تبلغوا الحقيقـة إلى شعوبكم، وكما ذكرت أنني مسـئول أمـامهم وأنهـم سـاندوني ولازالـوا يؤيدونني مما جعلني أشعر بالفخر".

ثم قال السادات ردًا على مراسل أجنبي آخر: بعثوا إلي صحفي معـين هو: ديفيد هيرست، وكلكم تعرفونه وتعلمون أني طردته من الـبلاد، ففـي

نهاية 1972 كانت في مصر أيضا فتنة طائفية، كتب ثلاث مقالات، يمكنكم أن تقرءوها في "الجارديان"، وفي بداية 73 كتب ثلاثة مقالات في "نيويورك تايمز" والفكرة الرئيسية فيهم أن كل شيء في مصر قد انهار، وأن الحكومة غير مستقرة، ولا يمكن الاعتماد عليها، هناك برنامج لشبكة الـ"إيه بي سي" وهو يصور السادات على أنه الشاه الجديد. سألوا "ديفيد هيرست" عن أمر السادات ومصر، فكرر كل كلمة قالها في المقالات الست. وهذه هي الشرائط الخاصة بالـ"إيه بي سي" لكي تطلعوا عليها؛ لأن المراسل (كان) "ديفيد هيرست".

"**أود أن أتوجه إليكم بسؤال:** لماذا يشوهون صورة مصر في أكثر الدول صداقة لنا - وهي الولايات المتحدة التي تقدم لنا مساعدات جليلة حتى هذه اللحظة؟".

ثم انتهى السادات إلى مخاطبة المراسلين قائلا: "أنتم تعلمون أنه لا رقابة على ما تكتبون، ولكن اكتبوا كل شيء لشعوبكم ... قولوا الحقيقة... لا تقولوا لشعوبكم في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الحقائق المشوهة التي تصدر عن الحاقدين، لن نفرض رقابة أو أي نوع من الرقابة عليكم، لكن اذكروا الحقائق" (انتهى الاقتباس).

وقد كرر السادات بعد ذلك قوله للمراسلين: إن إسرائيل تفرض رقابة على الصحافة الأجنبية، في حين أن مصر لا تفعل ولن تفعل ذلك.

شفافية ذكية

إن التطورات التقنية في عالم الأقمار الاصطناعية والتصوير والتنصت عن قرب وعن بعد تفرض إعادة النظر في مفاهيم وتقاليد حماية أمننا

القومي. ومن رأيي المتواضع أن الشفافية المعلوماتية (فيما عدا القليل جدًّا من الأسرار الحربية) يجب أن تتاح لممثلي الآخر الحضاري- كالدبلوماسيين والمراسلين الصحفيين والباحثين الأجانب، إن هذه الشفافية من شأنها ألا يبني مخططو السياسة الخارجية الأجانب سيناريوهاتهم تجاهنا على معلومات غير دقيقة أو مشوهة، لقد مضى العصر الذي كان يمكن فيه إخفاء عوراتنا السياسية أو الاقتصادية، والأفضل لأجهزتنا الأمنية أن تعترف بالتطورات التقنية الرهيبة التي تكشف أدق تفاصيل حياة الأمم.

يقول المَثَل العامي المصري: "حرَّص من صاحبك ولا تخوِّنه". وبرغم أنني لست متخصصا في الشأن الأمني، إلا أنني أورد الملاحظات التالية اعتمادا على خبرة المعايشة:

1- إن استمرار مراسل أجنبي أكثر من أربع أو خمس سنوات في بلادنا تجعله مطمعا لأجهزة المعلومات في بلاده بشكل أو آخر.

2- يجب أن تتابع سفاراتنا في دولة المراسل الأجنبي ما يكتبه في صحيفته أو يرسله إلى الوكالة أو الموقع أو المحطة التي يراسلها. فإن تحليل مضمون الرسائل الإعلامية المنشورة أو المبثوثة يصنف مرسليها تصنيفا دقيقا.

3- قد يستلزم الأمر الإحاطة بتحركات وعلاقات بعض المراسلين المقيمين أو الزائرين.

4- ويجب مراعاة الفروق الثقافية السلوكية لدى المراسلين الأجانب في بلادنا، فقد يكون بعضهم سكيرا أو زير نساء أو حتى شاذ جنسيا. ومن غير المنطقي التدخل السافر في هذه المسائل أو تصور

أن بالإمكـان السـيطرة عـلى بعـض المراسـلين بمجـرد مـواجهتهم باقترافهم هذه "الموبقات".

5- إن الأقمار الاصطناعية التجسسـية ومحركـات البحـث في شـبكة الإنترنـت أضـحت تقـدم تفاصـيل التفاصـيل مـن أسرار النـاس والمجتمعات، وربما الجيوش، بالصوت والصورة أحيانا، ومن هنـا فلا داعي لتقييد حركة المراسلين الأجانب في بلادنا، ومنعهم مـن التصوير في الشوارع أو القرى والمدن.

* * *

الفصل الثاني

جمعية المراسلين الأجانب في القاهرة

عرفت هذه الجمعية عام 1981، عندما التحقت صحفيا وتليفزيونيا بالمكتب الإقليمي لشبكة التليفزيون اليابانية "فوجي" في القاهرة، وقد تابعت نشاطاتها المهنية والاجتماعية، ومنها دعوة مسئولين ورموز فكرية مصرية وعربية ودبلوماسيين أجانب وعرب؛ للنقاش والحديث مع الجماعة الصحفية الأجنبية، كما شاركت في كثير من رحلاتها الصحفية والسياحية داخل مصر وخارجها، وغطيت أهم المؤتمرات الصحافية التي عقدتها.

وكانت عضوية الجمعية قاصرة على المراسلين الصحفيين الأجانب والصحفيين المصرين العاملين مع مكاتب وسائل الإعلام الأجنبية، ثم قررت الجمعية السماح بعضوية منتسبة للدبلوماسيين والملحقين الصحفيين في السفارات الأجنبية بالقاهرة، وأظن أنه بعد سنوات من انتخاب الزميل الألماني المخضرم "فولكارد فيندفور" تقرر فتح باب العضوية المنتسبة لشخصيات من ذوي الحيثية وإعلامين مصرين من وسائل الإعلام المحلية، وبكل أسف فقد أدى ذلك إلى تسلل أفراد غير مناسبين، إلى درجة أنني ذات يوم فوجئت بشاب حاصل على دبلوم سنتين بعد الثانوية العامة لا يجيد الإنجليزية، وكان يوما ما يعمل جزارًا، يقول لي: إنه بدأ يكتب في صحيفة خاصة جديدة، وقد انضم منتسبا إلى عضوية جمعية المراسلين بعد دفع الرسوم التي كانت مرتفعة نسبيا بالقياس إلى رسوم العضوية العادية.

أكثر من ذلك فقد لاحظت في نهاية التسعينيات - أي قبل سفري للعمل خارج البلاد- وجود أشخاص أجانب لم أعتد مشاهدتهم كأعضاء صحفيين ولا منتسبين في الجمعية من قبل، كان ذلك أثناء رحلة نظمتها سكك حديد مصر لأعضاء الجمعية إلى الواحات الداخلة بصحراء مصر الغربية ومنها إلى قنا، حيث عبر القطار نهر النيل إلى صحراء مصر الشرقية حتى سفاجا على البحر الأحمر، وقد سألت بعض هؤلاء الضيوف فعرفت أنهم ألمان من مهن لا علاقة لها بالصحافة، ولكنهم حصلوا على عضوية منتسبة في جمعية المراسلين، وانتهزوا هذه الفرصة للتمتع برحلة شبه مجانية في مصر من غربها لشرقها.

لقد التحقت عضوا بهذه الجمعية في النصف الأول من الثمانينيات، ثم أصبحت مسئولا منتخبا ضمن مجلس إدارتها لفترتين مدتهما ست سنوات. وأثمرت علاقتي المهنية بمراسلي الإعلام الأجنبي في مصر والشرق الأوسط، عن فكرة مشروعي الإعلامي الخاص الذي تحول لاحقا إلى شركة تقدم خدماتها المترجمة إلى أولئك المراسلين وإلى الدبلوماسيين والباحثين الأجانب المهتمين بشئون المنطقة.

ومنذ تاريخ التحاقي بالعمل مع اليابانيين حتى كتابتي هذه السطور في صيف عام 2009 بالدوحة، لم تنقطع صلاتي المهنية والإنسانية بممثلي الإعلام الأجنبي في مصر وبعض دول المنطقة، كالأردن وفلسطين والعراق وقطر ودبي وإيران وتركيا.

وطيلة تلك السنوات كان ديدني ودأبي هو: أن أقدم بلادنا وثقافتنا وأحداثنا ورموزنا المحترمة للآخر الحضاري بالصدق والأمانة، وأن ألفت

نظر الزملاء الأجانب إلى زوايا عميقة من شئون وتقاليد حضارتنا وهويتنا بلا تزيد أو تعصب أو انسحاق وشعور بالدونية.

آراء إيجابيـة

أتذكر أنني سألت أربعة من الزملاء في مجلس إدارة جمعية المراسلين سؤالا واحدا هو: ما انطباعك عن المصريين بعد السنوات التي قضيتها بينهم؟ وجاءت الإجابة من الزميل "شيا" مدير وكالة الأنباء الصينية في منتصف التسعينيات من القرن الماضي كالتالي: أكثر ما لفت نظري هو إحساس المصري بالقناعة والرضا، وأن سعادته تنبع من داخله، وليس لأسباب تتعلق بالثراء المادي، لقد كنت أرى يوميا مواطنا مصريا بسيطا هو بواب العمارة المواجهة لمقر مكتب وكالة شينخوا في حي المهندسين، الرجل متزوج وله ستة أطفال، ومعهم بعض أبناء أخته، الكل كانوا فيما يبدو يعيشون في غرفة ببدروم العمارة، والعجيب أن ابتسامة كانت ترتسم على وجه ذلك البواب طوال يومه ولا تفارقه، **وأضاف شيا**: ولم أشعر بالأمان التام وعدم الخوف من الجريمة المسلحة إلا هنا في مصر. إنني أعتقد أن المصريين هم أقل شعوب الأرض ارتكابا لجرائم السرقة أو الاغتصاب.

أما زميلتنا الأميركية في مجلس إدارة جمعية المراسلين، والتي لا أتذكر اسمها الآن **فردت على سؤالي نفسه بقولها**: إن أكثر ما لفت نظري أمانة المصري. واتفق معها في ذلك زميلنا مراسل برافدا آنذاك فيلاديمير بلياكوف، ثم حكت لي الزميلة قصتها مع سائق تاكسي ركبت معه ذات يوم وفوجئت به يحملق فيها من مرآة السيارة ثم يخرج من "التابلوه" نظارة شمسية ويقدمها لها قائلا: أنت صاحبة هذه النظارة فقد نسيتها بالتاكسي.

قبل عام يوم ركبت معي من الزمالك. **وتقول الزميلة**: لقد كنت أتصور أنني فقدت نظارتي أو نسيتها في مكان ما. **وتضيف**: قال لي السائق: لقد كنت أحملق في كل سيدة تركب معي من نفس مكان ركوبك بالزمالك لعلها تكون أنت لأسلمها النظارة.

وقد سألت الألماني فولكارد فيندفور في نفس الجلسة تفسيره لمثل هذه الواقعة ولشهادات الزملاء **فقال لي**: في رأيي أن القرآن هو السبب، فالمصريون عموما يسمعون ويقرءون القرآن يوميا، وأنا أعلم أن القرآن يحث المسلمين على تجنب ارتكاب الجريمة أو إيذاء الآخرين. (من مقال بعنوان: الشعب المصري في عيون المراسلين الأجانب).

وعلى صعيد الصحافة اليابانية استمرت علاقتي المهنية بالزميل دايجي ساداموري المدير الإقليمي لمكتب أساهي شيمبون في القاهرة منذ عام 1983، حتى نقله إلى واشنطن، فعودته القاهرة مرة أخرى، وكان نعم الصحفي المعتز بمهنيته وثقافته المتعاطف مع قضايانا، ومن الجدير بالذكر أنه اختار شرم الشيخ لتكون مقرًا لإقامته عندما تقاعد في نهاية 2007.

وأشهد أنني صادفت طيلة العقود الماضية من منتصف الثمانينيات وإلى نهاية عام 2000 نماذج من المراسلين الأجانب تدعو للفخر، من حيث حرصهم على التوازن والدقة في نقل الحقائق من الميدان ومن كافة الأطراف، ولعلي لا أنسى منهم الزملاء مديري مكتب الـ "بي بي سي" كـ"بوب جوبنز" ثم "جيفري فيليبس" و"سايمون إنجرام" و"جيم ميور". فقد تعرض كل منهم تقريبا لتحرشات وتضييق رسمي في بعض متابعاتهم لمجريات الصراع السياسي في مصر، ومن المعروف أن وطيس

ذلك الصراع كان يلتهب أحيانا إلى درجة ممارسة القتل خارج نطاق القانون ردًا على جرائم جماعات العنف في عقد الثمانينيات، كما ظلت السلطة المصرية تحرص، تحت سمع وبصر الإعلام الأجنبي، على التحرش الأمني بأكبر قوة سياسية في البلاد، وهي جماعة الإخوان المسلمين، باستخدام أساليب الإقصاء السياسي، وتزوير الانتخابات، والاعتقالات المتكررة والمحاكمات العسكرية.

وقد عرفت كثيرين من المراسلين الصحفيين اليابانيين، ولعل أبرز ما يميز أغلبهم عن بعض أقرانهم الغربيين هو مستوى حياديتهم بشأن إسلامنا وقضايانا العادلة، سواء في فلسطين أو بعدها العراق أو غيرهما. ويأتي بعد الحيادية حرص المراسلين اليابانيين على الاقتراب الشديد من الأحداث بالانتقال الفوري إلى أماكنها والإنفاق السخي على المهنة بلا تقتير ولا ارتشاء.

من ضيوف جمعية المراسلين

ذكرت أن من بين أهم أنشطة جمعية المراسلين الأجانب، دعوة بعض الشخصيات السياسية والفكرية البارزة ونشطاء الجمعيات الأهلية والدبلوماسيين العرب والأجانب للنقاش والإجابة عن أسئلة المراسلين، وجرت العادة أن يقترح أحد أعضاء مجلس إدارة الجمعية شخصا بحسب القضايا المثارة أو حسب المناسبات التاريخية، ويجري تمرير اسم الضيف المقترح على باقي أعضاء المجلس أو تتم المناقشة جماعيا مع صاحب الاقتراح ليطرح حيثيات اقتراحه ومدى طلاقة الضيف في الحديث بالإنجليزية أو حاجتنا إلى وجود مترجم، واحتمالات أن تستفز دعوتنا له

جهات أمنية قد تعرقل استضافته. (إما بأمر الفندق رفض تأجير إحدى القاعات للجمعية، أو بمنع الضيف نفسه بطريقة أو أخرى من الوصول إلى تجمع المراسلين الأجانب). فإذا وافقت الأغلبية يتم دعوة الضيف في مقر الجمعية أو بأحد الفنادق، وبالطبع يتم تبليغ الاسم والموعد قبل وقت كاف لكل الزملاء الصحفيين للحضور والمشاركة.

ويحدث أن يبادر مسئول تنفيذي أو قيادي رسمي بارز بطلب التحدث إلى مراسلي الإعلام الأجنبي، وفي هذه الحالة يعرض الأمر على كل أعضاء مجلس الإدارة أو على رئيس مجلس الإدارة والأمين العام وأمين الصندوق، وتؤخذ الموافقة إن كان الطلب يبدو "مستعجلا" من جانب هذا المسئول أو ذاك، بالطبع كنا نفهم أن لدى الدولة رسالة عاجلة ومهمة تريد توصيلها إلى الرأي العام الأجنبي عبر المراسلين الأجانب المقيمين.

ومن الأسماء التي تكررت دعوتها أو التي عرضت نفسها على الإعلام الأجنبي بشكل أو آخر في حقبة التسعينيات إبان عضويتي في مجلس جمعية المراسلين: مستشار الرئيس مبارك السياسي أسامة الباز، وبعض رؤساء هيئة الاستعلامات بحكم منصبهم، ومن أبرزهم ممدوح البلتاجي ثم نبيل عثمان. أما من اعتدنا نحن أعضاء مجلس الإدارة دعوتهم أكثر من مرة فأذكر منهم الصحفي الأهرامي اليساري (الراحل) محمد سيد أحمد، والكاتب المسرحي اليساري لينين الرملي والكاتب اليساري القبطي د.ميلاد حنا، والكاتب والدبلوماسي (السابق) حسين أحمد أمين، والكاتب الصحفي الحكومي (سابقا) عادل حمودة، والكاتب الإسلامي محمد عمارة، والسفير

العراقـي الأسـبق نبيـل نجـم، وحـدث ذات مـرة أن فوجئـت باستضـافة الجمعية سفير إسرائيل في القاهرة.

أسامة الباز

شغل الرجل منصب وكيـل وزارة الخارجيـة المصريـة لسـنوات طويلـة منذ عهد الرئيس الراحل أنور السادات، وقـد أسـند إليـه في ذلـك الوقـت مهمة مساعدة نائـب رئـيس الجمهوريـة حسـني مبـارك، والمعـروف عـن أسـامة البـاز أنـه كـان عضـوا نشـطا في الاتحـاد الاشـتراكي وربمـا التنظـيم الطليعي أثناء بعثه لنيل الـدكتوراه في أميركـا، والرجـل هـو أحـد القلائـل المشهود لهم بالكفاءة المهنية وسعة الثقافة والتواضع فضلا عن طلاقته في الحديث بالإنجليزية. وقد أصبح المستشار السياسي للرئيس حسني مبـارك عقب اغتيال السادات.

لقد ظـل البـاز أحـد الضـيوف شـبه الـدائمين عـلى جمعيـة المراسـلين الأجانب. ولعله كان يقوم بمهمة شبه رسمية؛ وهي توصيل رسائل سياسية مهمة للرأي العام الأجنبي عبر المراسلين الأجانب، باعتبـاره مصـدرا رسـميا مقربا جدًّا من رئيس الدولة.

وأتذكر أنه بمناسبة قتل قوات الاحتلال الإسرائيلي الطفل محمد الدرة، وحـدوث ردة فعـل شـعبية عارمـة في طـول مصر وعرضـها، جـاء الرجـل ليتحدث إلى المراسلين، ومما قاله بصراحة: إن السلطة المصرية ظلت تمنـع التليفزيون المصري من إذاعة النبأ حتى لا يستفز الشـارع المصري، وبـذلك أفصح الرجل عما لم يكن غيره يعترف به من رقابة مباشرة على التليفزيون المصري، وفي مرة أخـرى وبعـد مشـاركته كضـيف عـلى جمعيـة المراسـلين

الأجانب أردت أن أحتج بيني وبينه على سلوك سياسي من الدولة، بـدا في حينه لي ولغيري متهافتا في استرضاء إسرائيـل، الرجـل بعـدما سـمع سـؤالي الاحتجاجي أخذ بيدي وجذبني للسير بجانبه **ثم همس قـائلا**: إننـا نـدرك جيـدا أن الأفضـل لمصر أن يكـون الجـار الشرقـي الملاصـق لحـدودها هـو فلسطين وليس إسرائيل. ومن المعروف أن الباز كان يحسب ضمن الصقور في فريق "كامب ديفيد" بجانب أنور السادات، ومع ذلـك فقـد صـمد ولم يستقل أو يطح به ضمن من احتجوا على ما قدمه السادات من تنازلات!

حسين أحمد أمين

كان السيد حسين دبلوماسيا مصريا وكاتبا معروفا بسلاطة قلمـه عـلى الإسلاميين، بلا تفرقة بين الوسطيين مـنهم والعنفيـين، وقـد شـغل منصـب السـفير أكـثر مـن مـرة ثـم أصـبح مـديرا لإدارة مهمـة مـن إدارات وزارة الخارجية، مواقف وكتابات الرجل في أكثر من مطبوعـة حكوميـة وعربيـة جعلتـه أثـيرا عنـد بعـض المراسـلين الأجانـب المتحـاملين عـلى الإسـلام والإسلاميين بكافة فصائلهم. وذات يوم اقـترح بعـض أعضـاء مجلـس إدارة الجمعية - ومن بينهم رئيس مجلس إدارتهـا فولكـارد فينـدفور أن يكـون حسين أمين ضيفا يتحدث إلى الأعضاء، لم أشأ الاعـتراض، مـن بـاب حـرصي على سماع الرأي الآخر، خاصة وأن الضيف له بـاع طويـل في الدبلوماسـية والكتابة السياسية.

حضر الرجـل وتحـدث بتحامـل وحِـدة شـديدة لـيس عـلى الإسـلاميين المصريين وحدهم بل حتى على بعض الوزراء، اتهم الرجل عددا مـنهم بـتهم اعتبرتها مبالغا فيها أو غير حقيقيـة، ومنهـا مـثلا: أن مـنهم مـن يبيـع نفسـه

للسعودية أو يتقاضى مكافآت من هذا الأمير أو ذاك، ولم يسلم وزير خارجية مصر نفسه من بعض الاتهامات الصغيرة والمستفزة، وللحق فقد كنت اعتدت في عملي مع الصحافة الأجنبية سماع رموز سياسية أو ثقافية مصرية أخرى يتحدثون للزملاء الأجانب بقدر من الصراحة الأقرب إلى الوقاحة في حق البلد والثقافة العربية والإسلامية، كان ذلك لمجرد نيل إعجاب المراسلين الغربيين وتحديدا الأميركيين والأوروبيين.

سجلت حديث حسين أمين بكاسيت صغير كغيري من الصحفيين الأجانب والمصريين وأنا في غاية الغيظ للمدى الذي وصل إليه في النقد غير الموضوعي، وأتذكر أنه لم يستثن الصحف والمجلات الحكومية أو اليسارية التي اعتادت استكتابه نكاية في الإسلاميين.

بعد حديثه سألته سؤالا كان كثيرا ما يراودني كلما قرأت كتاباته وكتابات أمثاله المتحاملة بشدة على الإسلام ذاته، **قلت للرجل**: ماذا تريد للإسلام بالضبط في حياتنا العامة؟ وهل يرضيك أن يكون ديننا مجرد عبادة داخل حوائط المساجد، أو شعائر جوفاء لا تجد لها أثرا في سلوك المسلم سياسيًّا واجتماعيًّا؟ لم يشأ الرجل أن يرد على سؤالي!

قررت يومها أن أكتب عمودا صحفيا في جريدة الشعب المعارضة في شكل رسالة مفتوحة إلى وزير الخارجية المصري آنذاك عمرو موسى، وقد اقتبست فيما كتبته فقرات نصية مما قاله ذلك المسئول الدبلوماسي أمام الزملاء الأجانب، وأذكر مما كتبته أنني أستغرب أن يكون شخصا في هذا المنصب الدبلوماسي الرفيع متحاملا على وزراء الدولة بهذا القدر من التجني والزور، كما أرسلت بالبريد نص العمود الصحفي إلى وزير الخارجية في ذلك الوقت عمرو موسى.

بعد عدة أيام **فوجئت برئيس مجلس إدارة جمعية المراسلين يهاتفني:** هل بلغك ما جرى لحسين أمين ضيفنا في الأسبوع الماضي؟ **فرددت بالنفي متسائلا:** ما الذي جرى؟ **أجابني فيندفور:** يجرى التحقيق معه في وزارة الخارجية بسبب ما قاله عندنا. فلم أعلق. وبعد أسابيع بلغني أن الخارجية أنهت خدمة صاحبنا.

محمد سيد أحمد

خلال العقد الأخير من التسعينيات استضفنا غير مرة الكاتب الصحفي الأهرامي اليساري محمد سيد أحمد (عليه رحمة الله)، وكان يجيد الفرنسية والإنجليزية، ويحيط بكثير من زوايا السياسة المصرية الخارجية والداخلية، اكتشفت أنه موضوعي ومنصف على النقيض من معظم اليساريين والعلمانيين والليبراليين العرب، كان الرجل يختلف فكريا مائة وثمانين درجة مع الإخوان المسلمين، لكنه أبدا لم يسبهم ولم يغمطهم حقهم في العمل السياسي، بل ظل يكرر مقولة سمعتها منه أكثر من مرة، وهي: إنه لا يستطيع أن يسفه وجهات نظر ورموز ومنهج الإخوان، **وكان يتساءل مستنكرًا:** كيف ذلك وفيهم كثيرون يحملون أعلى الدرجات العلمية الأكاديمية والخبرة في شتى المجالات؟ كان الرجل يقول بذلك ويصر عليه، في حين كان سياسي كرفعت السعيد أمين عام حزبه التقدمي الوحدوي (والشيوعي السابق أيضا) يصمم على مناصبة الإخوان العداء وإلصاق كل نقيصة بهم.

ويبدو لي أن موقف محمد سيد أحمد كان ينبع من نشأته البرجوازية التي أغنته عن الوقوع في براثن المغريات والرشاوى السياسية التي تأخذ بعقول أصحاب التطلعات السياسية.

كان هذا الصحفي مسئولا فعليا عن مجلة روزا اليوسف الأسبوعية، وكانت المجلة - ولا تزال- تشن حملات سخيفة وغير موضوعية ضد قوى ورموز المعارضة الحزبية وغير الحزبية، بحدة وشراسة وقليل من المصداقية، وتميز المذكور بكتاباته المستفزة اجتماعيا والصادمة للأسر المحافظة، وقد تبنى نشر صور عُدَّت خلاعية ضمن موضوعاتها "الساخنة" أو التي تتناول أمورا جنسية، **وقد قيل في تلك الفترة**: إن حرم شخصية سياسية كبرى عبرت عن سخطها على مدى الإثارة الذي بلغته صور مجلة "روزا اليوسف" في عهد حمودة، وقد أطيح به بعد ذلك ليستقر كاتبا في الأهرام لفترة قبل أن يرأس تحرير واحدة أو أكثر من الصحف الخاصة المثيرة للجدل. في تلك الأثناء دعته جمعية المراسلين الأجانب فإذا به يتفاخر لأعضائها بدوره في قضية مثيرة، أدت إلى الإطاحة بالمشير (الراحل) محمد عبد الحليم أبو غزالة، وكان الرجل يشغل منصب وزير الدفاع، وقد عرف عنه تمتعه بشعبية كبيرة وسط القوات المسلحة.

ادعى عادل حمودة أمام الزملاء الأجانب أن حملته في "روزا اليوسف" تسببت في إخراج أبو غزالة من السلطة، وقد استفزتني عبارته تلك، **فبادرته بسؤال**: ترى هل كنت أنت من سجلت وفرغت شرائط التنصت على مكالمات أبي غزالة مع من سميت فتاة المنوفية؟ (في تلك الفترة سرت شائعة عن علاقة ما ومكالمات هاتفية بين أبي غزالة وسيدة تدعى لوسي أرتين، وأطلقت عليها الصحافة الصفراء اسم: فتاة المنوفية). تجاهل حمودة السؤال، ولكن الزملاء الأجانب أدركوا من عدم إجابته المعنى الذي حرصت أن يصل إليهم.

ن. ع.

وقد نالني بعض التحرش الأمني من جراء حرصي المهني كصحفي وكمراقب سياسي على التعرف والتعريف بالإخوان كحقيقة سياسية واقعية. وأتذكر أن زميلي الراحل في جمعية المراسلين علي ماهر، وكان مراسلا لوكالة الأنباء القطرية في القاهرة، كشف لي سر هذا التحرش الأمني بعبارة نقلها عن مسئولين أمنيين، وكانت المناسبة اقتراحي دعوة الصحفي الراحل عبد المنعم سليم جبارة - المسئول الإعلامي الإخواني- للحديث إلى المراسلين الأجانب عما يتعرض له رموز الإخوان من اعتقالات، أسرَّ لي علي ماهر - يرحمه الله- **قول مسئول بجهاز أمني**: إننا نحاصر الإخوان إعلاميا، لكن فلان (المؤلف) يكسر هذا الحصار بفعل وجوده في جمعية المراسلين.

ففي النصف الثاني من التسعينيات تم تعيين ن. ع. مسئولا إعلاميا كبيرًا، وكان الزميل "جوناثان رايت" مديرا لمكتب وكالة "رويترز". وحدث أن دخل "رايت" في نقاش حاد مع ن.ع. واحتدم الجدل لدرجة كادت تفقد ذلك المسئول أعصابه وهيبته الوظيفية، كانت المناسبة دعوة عشاء من ذلك المسئول لأعضاء مجلس إدارة جمعية المراسلين الأجانب، ومدراء مكاتب أهم الوكالات والصحف والمحطات الأجنبية.

وعقب تناول العشاء أخذ المسئول الكلمة وألقى على مسامع الحضور محاضرة حول دورهم وعملهم في مصر حسبما يراه. وتصادف أن كانت تلك الفترة تشهد حملة دعائية للنظام بمناسبة دعوة الرئيس قادة أحزاب المعارضة لما سمي آنذاك "الحوار القومي"، وأتذكر أنني أخذت الخيط

وسألت ن. ع: كيف يكون الحوار قوميا في حين تستبعد السلطة منه تيار الإخوان المسلمين الذي يفوز في كل انتخابات تجرى في البلاد؟ ورد الرجل بالأسطوانة المشروخة التي لا تقنع طفلا عن "محظورية" الإخوان وعنف الإخوان"، فما كان من جوناثان رايت إلا أن تحمس لتفنيد رد ن.ع. المتهافت قائلا - على ما أتذكر- : "إن أيا من الإخوان لم تثبت عليه تهمة عنف منذ عادوا إلى الساحة في بدايات عهد السادات". حدث هرج ومرج وثار مساعد ذلك المسئول المرافق له على كاتب هذه السطور معتبرا أنني تسببت في هذا الاشتباك غير المتوقع في مثل هذه المناسبة.

كانت بعض تصرفات ن.ع. تنحو إلى الوصاية على المراسلين الأجانب أو إلى تأنيبهم ولومهم على بعض كتاباتهم ومتابعاتهم لمجريات الأمور، ووصل الأمر ذات مرة أن أحد المراسلين صرخ في وجه بعض موظفيه متهما إياهم بخداع وتضليل ممثلي الصحافة الأجنبية، كان ذلك في إحدى انتخابات مجلس الشورى، فقد دعي المراسلون الأجانب لزيارة عدد من مراكز التصويت، وفوجئ الزملاء بأنهم ممنوعون إلا من متابعة لجان بعينها، وهناك وجد الصحفيون صفوفا متراصة أمام الصناديق، وسرعان ما اكتشفوا أن المصطفين هم من صغار موظفي بعض الهيئات الحكومية القريبة. وقد تم حشدهم خصيصا لأغراض التصوير، وعندئذ ثار المراسلون في وجه موظفي ذلك المسئول بغضب، وممن لازلت أذكرهم من بين أشد الغاضبين مصور فوتوغرافي أميركي مقيم.

ولم يشأ ذلك المسئول الحكومي أن يفوِّت لي واقعة حفل العشاء دون الانتقام من شخصي الضعيف، فبعد أيام وبينما نجتمع كمجلس إدارة جمعية

المراسلين وصل كتاب مـن الهيئـة التـي يرأسـها يطلـب بصراحـة وفجاجـة إسقاط عضويتي من المجلس. وبعدما تـدارس الأعضـاء الأمـر، وكـانوا مـن عدة جنسيات أوروبية وآسيوية قرروا تجاهل هذا الطلـب. وزادوا القـول بأن هذه حالة تحرش رسمي بعضو من الأعضاء ولا يجب السكوت عليها، ثم تطوع واحد أو أكثر منهم باقتراح أخذ الموضوع إلى رئـيس الجمهوريـة في أول مقابلة صحفية تتاح لهم.

استنكفت شخصيا أن يدافع الزملاء الأجانب عنـي في مواجهـة سـلطة بلدي، فشكرت الزملاء أعضاء مجلس الإدارة على التعاطف وعـلى موقـف تجاهل الرسالة **قائلا**: إنني سأتكفل بالمسألة.

وكتبت شكوى مختصرة لخصت فيها الواقعة وسلمتها باليد إلى مكتب وزير الإعلام حينذاك صفوت الشريـف، وحصـلت لهـا عـلى رقـم وتوقيـع بالاستلام من سكرتاريته في الدور التاسع بمبنى التليفزيون.

غير أن ذلك الموظف الكبـير أخذتـه العـزة بـالإثم فاسـتمر في سـلوكه الانتقامي ضدي؛ ففي موعد تجديد بطاقتي الصحفية الصادرة مـن المركـز الصحفي التابع لهيئة الاستعلامات فوجئت بعراقيل غير مسـبوقة. **قـال لي الزميل الـذي يجهـز البطاقـات الجديـدة**: إن لديـه تعلـيمات بـألا تجـدد البطاقة إلا بتقديمي عقد عمل من المركز الرئيس للشـبكة اليابانيـة ولـيس من المكتب الإقليمي بالقاهرة. ساورني الشك في تعمد عرقلة حصولي عـلى البطاقة الصحفية بعد واقعة النقاش مع المسئول الحكومي، ومـع ذلـك لم أجادل الموظف، عدت إلى مكتب الشبكة شارحا للمدير الصـديق "هيـديو تانيكاوا" الموضوع، فما كان منه بعد إبداء التعاطف الشديد إلا أن سـارع

بإعداد عقد جديد أرسله إلى طوكيو ثم سلمني إياه بعد أيـام في مظـروف وارد بالبريد السريع من طوكيو، والعقد موقع ومختوم مـن إدارة التحريـر في المركز الرئيسي. أخذت العقد الجديد إلى الموظف ذاته بالمركز الصحفي، **فلم يجد بدًا من أن يقولها لي صراحة**: "إن ثمة قرار بألا تصدر لـك بطاقـة صحفية حتى مع وجود العقد".

عند ذاك أيقنت أن الموضوع أصبح أكبر مـن شـكوى للـوزير، فقـررت تصعيده سياسيا عبر الشكوى لنقابـة الصحفيين التـي أنـا عضـو بهـا، ثـم عرضت الموقـف في أول اجـتماع لمجلـس إدارة جمعيـة المراسـلين، فأبـدى الجميـع امتعاضـهم وغضـبهم، فشـكرتهم قـائلا: دعونـا نكـون عمليـين، فالتحرش الرسمي بحرمـاني مـن البطاقـة الصـحفية لا يضرني في ممارسـتي المهنة لأنني أحمل بطاقة عضوية نقابة الصحفيين، وهذه لا تملك السـلطة سحبها، المشكلة هي: أن بطاقة عضوية جمعية المراسلين لا تصـدر إلا لمـن يعتمد من المركز الصحفي كصحفي يعمـل في مؤسسـة إعلاميـة أجنبيـة. فهل توافقون على إصدار بطاقة عضويتي بدون حصولي على بطاقة المركـز الحكومي؟ **وعلى الفور قال الجميع**: بـالطبع فـنحن نعرفـك مـن سـنوات طوال كزميل يمارس المهنة، ونحن شهود على أنك تتعرض للتحـرش المهنـي بسبب عملـك ومواقفـك. وبالفعـل صـدرت لي بطاقـة عضـوية الجمعيـة، وظللت أمارس وظيفتي كمنتج أخبار في مكتب شبكة فوجي اليابانية.

لعبة تشتيت الأصوات

جاء موعد انتخابات مجلس إدارة جمعية المراسـلين بعـد تلـك التطـورات بشهور قليلة، فقررت الترشح لفـترة ثالثـة، وتقـدمت بطلـب الترشـح، ولم يـزد

عدد المتقدمين عن العدد المطلوب لمقاعد المجلس. كان ذلك يعني فوزي بالتزكية، لكن المسئول الإعلامي الكبير الذي أشرت إليه ظل لم ييأس من محاولات إقصائي عن عضوية الجمعية، تفتق الذهن الرسمي عن حيلة لا أبرئ أحد زملاء المجلس من التورط فيها، كان أعضاء المجلس فيما عدا كاتب هذه السطور قد غادروا القاهرة في رحلة صحفية إلى فلسطين المحتلة. فقد كانت الجمعية رتبت لقاء مع ياسر عرفات في "رام الله"، كما رتبت زيارة إلى بيت المقدس والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة. وكان من بين الزملاء المصريين المشاركين واحد يعمل في وكالة الأنباء الألمانية أرمز له بـ(خ. د.) فوجئت أنه تقدم للترشح بعد انتهاء موعد قبول الطلبات بيومين، بينما كان خارج البلاد. اعترضت بشدة، إلا أن رئيس مجلس الإدارة ادعى أن ذلك الزميل قدم الأوراق أثناء الرحلة، مضيفا أنه لا يرى داعيا لأن نجعل من الموضوع قضية، فنحن جمعية تطوعية.

لم يكن بد من قبول الأمر وتمت الانتخابات لتنقسم أصوات الزملاء المصريين بيني وبين (خ. د)، فكان ذلك لصالح زميلة أجنبية، أظنها كانت مراسلة راديو الفاتيكان، وقد فازت بالفعل. وهكذا تحقق هدف إقصائي من الجمعية.

لم أكترث كثيرا بهذه الألاعيب الصغيرة، وواصلت علاقتي وأنشطتي بالجمعية من خارج مجلس الإدارة حتى قدر لي أن أسافر للعمل بالجزيرة في أوائل عام 2001.

وفي أواخر مارس 2009 أخبرني زميلي (ص. ن) الذي يعمل في إحدى كبريات وكالات الأنباء الأجنبية في القاهرة بتفاصيل واقعة الإطاحة

بالمسئول الإعلامي (ن. ع) قال لي الزميل الذي أثق في صدق روايته: إن ذلك المسئول فاجأ مراسلة جريدة عربية لندنية مشهورة بسحب بطاقتها الصحفية عقابا لها على توجيهها سؤالا للرئيس في مؤتمر صحفي عقد بمقر الرئاسة، فقبل بدء المؤتمر كان ذلك المسئول قد اتفق مع عدد قليل من المراسلين على أن يسألوا أسئلة معينة للرئيس، الزميلة مراسلة الجريدة العربية اللندنية لم تكترث برفض المسئول الكبير إعطائها الإذن لتوجيه أسئلة للرئيس، وانطلقت تسأل سؤالا أجاب عنه الرئيس بالفعل، وعقب المؤتمر الصحفي فوجئت المراسلة بالموظف الإعلامي الكبير يعنفها ويسحب بطاقتها الصحفية.

من سوء حظ الرجل أن الزميلة كانت تربط والدها صلة بشخصية مهمة في رئاسة الجمهورية، وحدث أنها بادرت بالاتصال بتلك الشخصية، وكانت النتيجة هي الإطاحة بالسيد (ن. ع) من منصبه.

"بيرسونا نان جراتا"

(شخص غير مرغوب فيه)

ذات يوم من خريف عام 1996 أو 1997 لا أذكر بالضبط، فوجئنا في مجلس إدارة جمعية المراسلين بقرار رسمي بطرد زميلنا في المجلس "دافيد دور" مدير مكتب وكالة الأنباء الفرنسية من البلاد، اجتمعنا على الفور لبحث ما يجب علينا عمله، ونجح رئيس مجلس الإدارة "فولكارد فيندفور" ونائبه آنذاك "بهاء القوصي" في تحديد موعد عاجل مع وزير الإعلام "صفوت الشريف". كانت هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها مكتب الوزير بعد استقالتي منه عام 1982، وكذلك كانت أول مرة أشاهد

صفوت وجها لوجه بعد نحو عشرين سنة، فقد كان يزورنا عام 1978 في مكتب الوزير السابق عبد المنعم الصاوي؛ حيث كنت أعمل مع وكيل أول الوزارة الرقيب العام الأسبق طلعت خالد، في تلك السنوات كان صفوت متطلعا إلى منصب رفيع في الوزارة بعد سنوات عمله بجهاز المخابرات، وحدث أن جرى تعيينه موظفا في الهيئة العامة للاستعلامات. وكان صفوت يعتقد أن طلعت خالد هو أحد مفاتيح تصعيده.

استقبلنا صفوت بصفتنا أعضاء مجلس إدارة جمعية المراسلين هاشًّا باشًّا، ووعد بإلغاء القرار، ووفى فعلا بوعده، وهكذا بقي "دافيد دور" في القاهرة حتى نهاية مدته، أما سبب قرار الطرد فكان خبرا بثته الوكالة الفرنسية من جنوب مصر يتعلق بوقائع ثبت كذبها عن اضطهاد بعض الأقباط هناك.

ولم أشأ أن أفوت المناسبة فطلبت من دافيد حوارًا صحفيا حول الموضوع وأذكر أنه وافق على الفور، (نشرت الحوار في صحيفة الشعب). وقد خرجت من ذلك الحوار بحقيقتين ترنان في أذني حتى اليوم؛ **الحقيقة الأولى**: أن المقر الرئيس لكثير من الوكالات الغربية يتدخل في صياغة الأخبار إلى درجة التحريف أو أحيانًا الحجب الكامل لصالح إسرائيل واللوبي الصهيوني المتغلغل في العواصم الغربية الكبرى. **والحقيقة الثانية**: أن وكالات الأنباء الكبرى تزرع لنفسها مخبرين صحفيين محليين في الأماكن الحساسة في مصر. وغالبا ما يكون هؤلاء المخبرون الصحفيون غير معروفين للسلطات، وهم يتقاضون مبالغ مالية من تلك الوكالات، **وقد سألت دافيد دور في حواري آنذاك**: كيف تضمن المستوى المهني لأناس ليسوا أصلا صحفيين؟ **فأجابني:** بأنه يخضعهم للتدريب كلما أتيحت الفرصة.

كان مراسل "بي بي سي" جيفري فيليبس في أواخر الثمانينيات رئيسا منتخبا لجمعية المراسلين قبل فيندفور، وقد دعا ذات مرة شابًا من رموز جماعة الجهاد المصرية كي يتحدث إلى الزملاء الأجانب عن وجهة نظر جماعته، وبعدما تجمع عدد من المراسلين الأجانب للاستماع ومناقشة ذلك الشاب، فوجئنا بخبر إلقاء السلطات القبض عليه قبيل وصوله إلى مقر جمعية المراسلين، (كانت الجمعية آنذاك تتخذ لها مقرًا في شقة كبيرة في عمارة الأورمان المواجهة لقصر أنور السادات بالجيزة).

وأذكر واقعة أخرى بطلها الزميل "سايمون إنجرام" مدير مكتب الـ"بي بي سي" الذي أدار وفريقه الصحفي تغطية محطته الانتخابات البرلمانية في نهاية عام 2000 (التي شارك فيها الإخوان المسلمون). جاءت تغطية الـ"بي بي سي" لحملة الدعاية الانتخابية ويوم الانتخاب في غاية المهنية، فإذا بالسلطات المصرية تلجأ إلى التشويش الإلكتروني على تردد المحطة، وكأننا عدنا إلى عصر الستينيات.

ولم تكتف تلك السلطات بذلك؛ بل أصرت بعد انتهاء الانتخابات أن تذيع الـ "بي بي سي" خبرا دعائيا عقيما عن شخصية مصرية مهمة جدًا، وأمام التهديد بإغلاق مكتبها في القاهرة رضخت المحطة الإنجليزية وأذاعت الخبر.

وأذكر أيضا: أنه في يوم الانتخاب عامذاك تعرض أكثر من زميل وزميلة من الأجانب إلى مضايقات، بلغت حد الاعتداء على المصور الفوتوغرافي الألماني "نوربرت شيلر" وتكسير كاميرته وضرب مراسلة محلية لوكالة الأنباء الفرنسية أظنها مي علام ما لم تخنّي الذاكرة.

وأسجل هنا: أن زميلا أميركيا -لا تسعفني ذاكرتي باسمه- كان مديرا لمكتب إذاعة صوت أميركا، وقد زاره وفد من رموز جيل الوسط الإخواني في مكتبه إبان أولى المحاكمات العسكرية في عهد حسني مبارك لعدد من قيادات الإخوان، فما كان من المراسل الأميركي إلا أن أبدى تعاطفه الفوري لما تتعرض له المعارضة المصرية من عنت وتعتيم حكومي، وفتح الرجل الأستوديو طالبا من ضيوفه الحديث على الهواء في إحدى النشرات التي كانت تبث من القاهرة.

سلبيات مهنية

برغم قناعتي بأن معظم وسائل الإعلام الأجنبية لديها من أدوات ضبط الأداء المهني أكثر مما لدى نظيراتها في بلدان العالم الثالث، إلا أن ثمة عدد من السلبيات المهنية في عمل بعض الصحفيين الأجانب في بلادنا، ومن ذلك مثلا:

* عدم التوازن بالتركيز على الجوانب السلبية، الأمر الذي يرسخ قناعات وصورا نمطية سيئة.

* الانحياز المتعمد لبعض الأقليات والطوائف والمرأة، بل وأحيانا إلى الشاذين جنسيا.

* الخلط المقصود بين ظواهر العنف والتدين لدى الإسلاميين، برغم تعدد حركاتهم واختلافاتهم المنهجية.

* الاهتمام الزائد بشخصيات وشرائح مجتمعية، كمسئولين بعينهم أو رموز النخبة المتغربة المثيرة للجدل.

التحق عدد غير قليل من الصحفيين والإداريين المصريين والعرب بالعمل مع مكاتب الإعلام الأجنبي في الدول العربية، كلبنان ومصر والأردن والعراق، وقد جاء وقت كان يغلب على هؤلاء العاملين العرب انتماؤهم إلى الأقليات الدينية كالأقباط والمسيحيين الموارنة، ويبدو لي أن السبب الرئيس في ذلك هو إجادة معظم المتعلمين من هذه الأقليات لغة أجنبية، كالإنجليزية أو الفرنسية، وحرص بعض الأقليات على الارتباط الشديد بالأجانب، على أن هذه المسألة تراجعت بشكل ملحوظ في نهايات السبعينيات ولعل العكس هو ما يحدث في العقدين الأخيرين من القرن الماضي وحتى اليوم.

أذكر في هذا الصدد أنني تقدمت لوظيفتي الأولى مع الإعلام الأجنبي عام 1981، وبعد نجاحي في امتحان قصير أجراه لي أول مدير إقليمي لشبكة فوجي في القاهرة، تدخل زميل قبطي كان سبقني بالعمل في محطة يابانية أخرى **وحرض مديري على عدم تعييني قائلا له**: إنني "شوهدت أصلي"!!! ومن ثم فقد أكون أصوليا، المدير الياباني لم يسمع نصيحة صاحبنا وعينني في الوظيفة في منتصف مايو 1981، وشاء القدر بعد مرور نحو سبعة وعشرين عاما أن يقص ذلك المدير لي هذه الواقعة ونحن نتناول عشاء في طوكيو في يناير 2008، **وقال لي "ماساهيدي ماتسوكا"**: إنني رددت على زميلك (كان اسمه إلياس) بقولي: إن كون (حازم) مسلم يؤدي الصلاة يجعلني أكثر حرصا على تعينه، فهو بذلك الأكثر تمثيلا لعموم الناس في مصر. **وأضاف ماتسوكا**: وقد تعمدت أن أعين سائقا فلسطينيا معتبرا

أنني بذلك أعايش نموذجا إنسانيا للاجئين الفلسطينيين عصب القضية المزمنة في المنطقة.

لقد قدر لي أن أعرف عددا غير قليل من الزملاء الصحفيين والإداريين المصريين والعرب في مكاتب الإعلام الأجنبي في القاهرة منذ الثمانينيات وحتى نهاية القرن العشرين، وقد وجدت من بينهم أقباطا من خيرة مواطني مصر كفاءة وخلقا، لكني أيضا وجدت بعضا ممن يتعصبون ضد هويتنا الحضارية المشتركة أو ممن يدسون بعض الأخبار دسا من دون أن يكون لها ظل من الحقيقة، ولست أنسى ناشرا مارونيا كان يزور مكتبنا ومكاتب الصحافة الأجنبية للترويج لنشراته المترجمة إلى الإنجليزية، وأشهد الله تعالى أنني اكتشفت فيها فبركات وأكاذيب خبيثة.

وساطة زميل عراقي

عرفت الصحفي العراقي صلاح نصراوي مراسل وكالة الأنباء الأميركية، فكان نعم العربي الشيعي العاقل الخلوق، تزاملت معه في مجلس إدارة جمعية المراسلين بالقاهرة سنتين أو أقل قليلا، وأتذكر أنني حاولت توسيطه في مشكلة وقعت بين صحيفة "أساهي شيمبون" اليابانية والسلطات العراقية قبل نهاية التسعينيات.

فقد منعت تلك السلطات مدير مكتب الجريدة الإقليمي في القاهرة من دخول العراق عقابا على مشكلة كانت محطة التليفزيون التي تحمل الاسم نفسه (أساهي) هي المسئولة عنها، وقد احتجزت السلطات العراقية معدات وكاميرا تلك المحطة بسبب مخالفة تتعلق بنظام إخراج الشرائط المصورة.

قلت لصلاح: أريدك أن تتوسط لحل المشكلة وإفهام العراقيين أن "أساهي الجريدة" غير "أساهي التليفزيون"، وأبدى الرجل تفهما وقبولا مبدئيا، فاتفقت أن أجمعه بمدير مكتب الصحيفة الزميل دايجي ساداموري، التقينا ثلاثتنا في أحد فنادق القاهرة، وفوجئت بأن الأخير تعامل بأنفة وفظاظة مع صلاح، فانتهى اللقاء بسرعة.

عاتبت زميلي الياباني فكان رده: إنه يكاد يقطع بأن صلاح مجرد عميل للنظام العراقي. **رددت عليه بسؤال:** لو افترضنا صحة ذلك جدلا؛ فما شأنه بالقضية التي جئنا من أجلها؟ المهم أن يسعى لحل مشكلتك كي تسمح السلطات هناك بدخولك العراق. **وأضفت موجها سؤالي المباغت للياباني:** ترى، بماذا ترد إذا سألك جهاز المخابرات الياباني عن أحداث أو مسألة في المنطقة العربية؟ فوجئ الزميل ساداموري بسؤالي وتلعثم قليلا، **ثم رد قائلا:** ليس لدينا في اليابان جهاز مخابرات. شككت في مقولته، **فاستدرك قائلا:** لكن لدينا جهاز معلومات تابع لرئاسة الوزراء، وإذا سألني سوف أجيب بما أعرف. **عندئذ سألته:** ولماذا لا تفترض أن يكون صلاح عميلا رغم أنفه للسلطات العراقية المستبدة، طالما أنك أنت ابن الدولة الديمقراطية مستعد للتعاون مع جهازها المعلوماتي؟

وإحقاقا للحق؛ فقد كان صلاح صحفيا مهنيا مستقلا، وقد ندم ساداموري على فظاظته معه، ثم طلب مني بعد أيام أن أدعوهما مرة أخرى للقاء، وقد صار الزميلان صديقين حتى اليوم، **والخلاصة من هذه الواقعة:** أن علاقة الصحفي المراسل بسلطات بلده قد تتوقف على طبيعة النظام السياسي، وعلى قدرة المراسل على التمييز بين واجبه نحو مهنته، وأصول

العمل الإعلامي التي توجب الفصل بين الصحافة والعمل الاستخباراتي التجسسي.

(هناك صحفيون أميركيون تم كشف عمالتهم لأجهزة المخابرات، وقد طردت مصر من كشفتهم ممن كانوا يعملون في مجلة شهرية وصحيفة أسبوعية أجنبيتين، أما إيران؛ فلا تتردد في اعتقال من تشك فيهم، ومن أشهر من أتذكرهم في الثمانينيات مراسل وول ستريت جورنال الأسبق بالشرق الأوسط جيرالد سيب).

حديث الشكوك!

سبقت لي الإشارة إلى المراسل المخضرم "فولكارد فيندفور" مدير مكتب المجلة الألمانية الشهيرة "دير شبيجل"، الذي قضى أكثر من خمسة وخمسين عاما متواصلة في منطقتنا العربية. وقد قدر لي أن اقترب منه منذ عام 1989، ومعي الزميل بهاء رشاد القوصي (الذي التحق قبل عام 2000 بعمل تحريري في الأمم المتحدة بنيويورك، ولعله نقل منذ بداية عام 2009 مسئولا إعلاميا أمميا في بيروت). إن "فيندفور" مثال يندر وجوده وربما لا يدانيه في إتقان العربية بأكثر من لهجة سوى عتاة المستشرقين. لقد حفظ من الشعر العربي وصادق من الكتاب والساسة في الدول العربية الكثير، ولعل ذلك ما أتاح له الفوز برئاسة مجلس إدارة جمعية المراسلين الأجانب بعد انتهاء فترة البريطاني جيفري فيليبس حتى اليوم.

إن "فيندفور" موسوعي الثقافة الألمانية والفرنسية والعربية، لكن هواه وميوله الحقيقية لا تكاد تعرف، **ولست أنسى زميلا مشتركا جاءني يوما يهمس في أذني:** أقطع أن "فيندفور" جاسوس مزروع في بلادنا، مثله مثل

السوفيتي السابق "بريماكوف" أو أكثر!!!. **وقد علقت على قول ذلك الزميل**: إن هذه مسألة من صميم عمل أجهزة الأمن والمخابرات، ولا علاقة لنا بها. **وأردفت**: كيف يخفى ذلك - لو كان صحيحا - على تلك الأجهزة، وقد أقام الرجل بيننا هذا العمر؟ ولم تمض سوى سنة واحدة على هذا النقاش الذي حسمته على طريقتي حتى جاءني الزميل يفتح الموضوع من جديد ومعه ما عدَّه دليلا قاطعا، **قال الزميل**: هل تذكر أن مجلس إدارة المراسلين قرر في اجتماعه أمس دعوة نائب مرشد الإخوان (آنذاك) مأمون الهضيبي للحديث إلى الزملاء في مقر جمعية المراسلين؟ **قلت له**: نعم أذكر ذلك. فواصل الزميل المصري كلامه قائلا: لقد كنت صباح اليوم أجري حديثا صحفيا مع الهضيبي، **وقد قال لي الرجل**: إن جهاز أمن الدولة اتصل به طالبا منه ألا يذهب للحديث إلى المراسلين الأجانب. وأضاف الزميل: الهضيبي أبدى اندهاشه من هذا الطلب قائلا للمسئول الأمني المتصل به: إنه لم يتلق دعوة من جمعية المراسلين أصلا. **قلت للزميل**: هل تقصد أن "فيندفور" أبلغ الأمن بفكرة الدعوة قبل إبلاغه الهضيبي بها؟ **أجاب الزميل**: نعم.

لم أقتنع بوجهة نظر زميلي المتشكك في "فيندفور"، فقد كان يعدُّه عميلا مزدوجا لكل من سلطات ألمانيا (بلده) ومصر التي يقيم فيها من عشرات السنين. **قلت له**: إن ما ذكره الهضيبي لا يعني بالضرورة أن فيندفور هو من بادر بإبلاغ الأمن المصري، فمن المحتمل أن يكون المبلغ أحد موظفي الجمعية أو أحد أعضاء مجلس الإدارة، وهناك احتمالات للتنصت على اجتماعات الجمعية، إن من حق الدولة أن تعرف على طريقتها! **وقلت**

لصاحبي: حتى لو كان "فيندفور" هو من أبلغ فـما المشـكلة؟ إنـه صـديق الجميع، فلماذا لا يصادق الأمن أيضا؟ وعلى كل فقـد صـارحت الرجـل في حوار صحفي متلفز كنت أجريته معه بمناسبة احتفاله بمرور خمسين عاما على وجوده وعمله في بلادنا، وقد اقتبست في مقدمة هـذا الكتـاب فقـرة من رده، أما كامل نص المقابلة فيجده القراء في ملحق هذا الكتاب.

* * *

الفصل الثالث

التواصل العربي مع الرأي العام الأجنبي

الإعلام العربي الموجه للرأي العام الأجنبي قضية متجددة، وقد أعيد طرحها للنقاش بفعل وطأة تشويه الإعلام الغربي المتصهين للانتفاضة الفلسطينية، ثم جاءت أحداث سبتمبر 2001 ، فالحرب الأميركية على أفغانستان والعراق، لتعمق إحساسنا بأهمية هذه القضية.

لقد تنبه البعض في بلادنا ،خاصة بعد أحداث سبتمبر 2001، إلى تزايد أهمية التواصل العربي بالصوت والصورة مع الآخر الحضاري بلغته، ودعا هؤلاء إلى تأسيس فضائيات ناطقة باللغة الإنجليزية، وأسجل هنا أنني كنت قبل سنوات طويلة من ذلك الحدث الجلل، قد تنبهت إلى الأهمية القصوى لدور الإعلام العربي الناطق بغير اللغة العربية وغير الخاضع للسلطات، ولهذا شرعت في إصدار نشرات صحفية مترجمة موجهة للدبلوماسيين والمراسلين والباحثين الأجانب باللغة الإنجليزية.

إنني أعتقد أن قدراتنا على التواصل المباشر مع الآخر الحضاري ستظل محدودة، وذلك لأن المواطن الأجنبي العادي لا يمكن أن يترك وسائله الإعلامية المحلية ويتحول إلى وسيلة إعلامية عربية ولو كانت تخاطبه بلغته، **ويضاف إلى ذلك**: أن لدى الآخر الغربي تحديدا شعورا بالاستعلاء على أصحاب الحضارات الأخرى، **ولعل ذلك يجد تفسيره في مقولة ابن خلدون**: "المغلوب مولع بتقليد الغالب"، وبالتالي، فالغالب يتوقع منا أن

نقلده ونتابع إعلامه، وليس أن يتابع هو إعلامنا الموجَّه ولو كان باللغات الإنجليزية أو الفرنسية ...إلخ.

لقد أدركت ذلك مبكرا ولهذا أسست مشروعًا إعلاميًّا يهدف إلى مخاطبة الوسطاء بيننا وبين المجتمعات الأجنبية، **والوسطاء في هذه الحالة هم**: الدبلوماسيون والمراسلون والباحثون الأجانب.

ومن بين الأهداف التي اتخذتها للمشروع في بدايته بخلاف كسر حاجز الجهل بلغتنا العربية:

1- ترجمة الأخبار والتقارير والمقالات والتحقيقات الصحفية المنشورة مع مراعاة الدقة والأمانة والتوازن والشمول.

2- مساعدة الصحفيين والدبلوماسيين والباحثين الأجانب وبعض المنظمات الدولية بترشيح مترجمين ومساعدين أكفاء.

بدأت هذا المشروع في منتصف مايو 1985 كوكالة خدمات صحفية خاصة لترجمة أهم ما تنشره الصحف والمجلات المصرية والعربية إلى اللغة الإنجليزية.

تجربتنا المتواضعة يناهز عمرها الآن (عام 2009) أربعة وعشرين عاما، وبرغم طابعها التجاري، إلا أن أهم دوافعها كان - ولا يزال- الدافع الحضاري، فنحن مجرد ناقل أمين وموضوعي إلى أقصى درجة لما تنشره الصحافة العربية المكتوبة، حكومية كانت أو معارضة أو مهاجرة.

تاريخيا يوجد في مصر وكثير من الدول العربية صحف وخدمات إذاعية حكومية ناطقة بالإنجليزية، وهي في معظمها فيما أظن قليلة الفائدة

للمتلقـي الأجنبـي، الأسـباب عديـدة لكـن أهمهـا عنـدي هـو: الرقابـة الحكومية، وملكية معظم تلك الصحف والخدمات للدولة.

لقد وجدت النخب الأجنبية المتلقية لترجماتنا الصحفية اليوميـة فرقـا ملحوظا بين المواد المترجمة حكوميا بالإنجليزية، وتلـك التـي كنـا نترجمهـا نقلا عن الصحافة الناطقة بالعربية، وقد اكتشفنا هذه الحقيقة من حسن استقبال الأجانب نشراتنا المترجمة.

وللحقيقة والتاريخ فقد سبقت مشروعنـا بعـض الـترجمات والـنشرات الشبيهة، **وأخص على وجهة التحديـد**: خدمـة مترجمـة عـن العربيـة كـان بعض اللبنانيين يصدرونها في قبرص ويرسلونها بانتظام إلى مكاتـب الإعـلام الأجنبي والسفارات بالقاهرة.

لم تكن تلك الترجمات أو النشرات تتصف بالصدق والتـوازن في النقـل والترجمة كما ذكرت من قبل، ولقد اكتشفت ذلك بنفسي بعد الاشـتراك في إحداها لعدة أشهر، وبعد تحليل مضمونها ظهر أن للقائمين عليهـا أجنـدة طائفية مقيتة. (كان أصحاب تلك الخدمة قد هـاجروا مـن بـيروت أثنـاء الحرب الأهلية واستقروا في نيقوسيا عاصمة قبرص).

لقـد كانـت تـرجماتهم وتحلـيلاتهم لأحـداث مصر والمنطقـة العربيـة تنضـح بخصـومة شـديدة، بـل وحقـد عـلى هويتنـا الحضـارية العربيـة الإسلامية.

أما الـ CPR وهي النشرة المترجمة إلى الإنجليزيـة، التـي كانـت وكالـة الأنباء الحكومية المصرية تصدرها، فاقتصرت - حتى بعد عام أو أكـثر مـن بدء إصدار نشراتنا- على ترجمة بعض أخبار وافتتاحيات الصحف المسماة

بالقومية فقط، وظلت الصحف المعارضة لمدة سنوات مهملة تماما في نشرة الوكالة، فضلا عن غياب أي ترجمات من الصحف والمجلات العربية الشهيرة كالشرق الأوسط ، ثم الحياة والقدس العربي لاحقا أو المجلة أو الحوادث .. إلخ.

* * *

الجاليات العربية والإسلامية

جسر للتواصل أم جزر للانعزال؟

إن التواصل الإعلامي المؤثر في كثير من شرائح الرأي العام الأجنبي، يحتاج وسائل أخرى غير وسائل الاتصال الجماهيري، **وأعني بذلك**: وسائل الاتصال المباشر، عبر الجاليات العربية والإسلامية بالخارج، وبعض المراكز الثقافية التي يجب أن يحسن اختيار القائمين عليها، وأضيف إلى ذلك وسائل الجذب السياحي والتفاني في خدمة السائحين القادمين إلى بلادنا. وأخيرا يجب تفعيل الدبلوماسية الشعبية، أي: تشجيع التبادل والاتصال الخارجي مع الاتحادات الطلابية والنقابات المهنية والعمالية والجمعيات الأهلية والنوادي الرياضة... إلخ.

إن التفاعل الجيد من جانب الوطن الأم مع جالياته المهاجرة يمكن أن يثمر إيجابيات عديدة في هذا الصدد، ولسنا بحاجة هنا للتذكير بالتجمعات اليهودية العالمية، ودورها النافذ والمؤثر على صناع القرار وقادة الرأي العام في أميركا وأوروبا ودول آسيا وأفريقيا ذات الوزن، لصالح دولة الكيان الصهيوني.

لقد أساء التعامل الحكومي مع معظم الجاليات العربية ، وبدلا من أن يستفاد بتلك الجاليات على نطاق التأثير الخارجي إذا بالنظم الشمولية العربية تعدهم جزءا من مجتمعها الداخلي، وتمارس فيهم أدوات القمع والدس وتأليب بعضهم على بعض، أو تجنيد البعض للتجسس وكتابة التقارير الأمنية.

ولا شك أن ثمة مشكلات وتعقيدات نفسية كثيرة تعيشها الجاليات العربية والإسلامية في الخارج، الأمر الذي يصعب دورها الاتصالي بالآخر الحضاري، فقد كانت الهجرة من المجتمعات الأم مدفوعة إما بالتضييق السياسي أو قلة فرص العمل أو انتشار المحسوبية والفساد الإداري في شتى مرافق وإدارات الوطن الأم، ولهذا أصبح ولاء بعض مجموعات أو أفراد تلك الجاليات للثقافة العربية والإسلامية منعدما، بل وربما تولدت لدى بعضهم رغبات انتقامية بشكل أو آخر، قد تترجم تلك الرغبات أحيانا بالتشهير بالهوية الأصلية أو الانسحاق الثقافي التام، ويحتفظ كثير من المهاجرين البسطاء بكثير من الأمراض الاجتماعية والثقافية التي أصيبوا بها قبل الهجرة، كاللامبالاة أو الضحالة الفكرية، وضيق الأفق الحضاري وهو ما أدى إلى انتشار الخلافات والصراعات بينهم على مسمع ومرأى من مجتمعاتهم الجديدة.

وبرغم كل ذلك يبقى الأمل في أن تنتبه النخب المهاجرة إلى حقيقة دورها الإنساني نحو الآخر الحضاري، وعليها أن توقظ في الجاليات روح الاعتزاز بالجوانب الإنسانية العظيمة في حضارتنا، وأن يتحول كل منهم إلى ناقل ومرسل للرسالة ليس بالكلام بل بالنموذج الحياتي فيصبح كل منهم عنوانا على حضارته.

المفصل الاتصالي

تحدثنا عن صعوبة التواصل العربي المباشر مع عموم الرأي العام الأجنبي بواسطة وسائل الاتصال الجماهيرية المعروفة، لكن الحقيقة أن لدينا إمكانات لا بأس بها للتواصل مع عناصر المفصل الأساسي الوسيط في

العلاقة بيننا وبين ذلك الرأي العام، وهم فئات النخبة المهتمة بنا؛ كالدبلوماسين، والمراسلين الصحفيين، والباحثين الأكاديميين الأجانب في المنطقة العربية، فمن رأيي أننا يجب أن نعيد دراسة وتقويم كل ما يحيط بعملهم في بلادنا، ويجب أن تناط مسئولية التعامل معهم بجهات وأفراد يتمتعون بمهارات اتصالية ومعلوماتية رصينة من غير مشتتي الولاء الثقافي.

ويجب أن ندرك دون حساسية، أن المتلقي الأجنبي للرسالة الإعلامية العربية لا ولن يصدق كثيرا من وسائل إعلام نظم الحكم الديكتاتورية التي تقمع شعوبها أو تنتقص من حقوق الإنسان في بلادها، وعلى ذلك فليوفر كل نظام عربي يتصف بهذه الصفات الأموال التي ينفقها في هذا المجال (صحافة وإذاعات وفضائيات موجهة باللغات الأجنبية ومستشارين ومكاتب ثقافية وإعلامية بالخارج ... إلخ).

إدارة الأجانب الإعلام العربي الناطق بالإنجليزية

سألني سكرتير صحفي لزعيم سياسي عربي محترم عن رأيي وتقيمي لقناة الجزيرة الناطقة بالإنجليزية، كنت والمدير الإقليمي لصحيفة أساهي شيمبون ننتظر في صالون مكتب ذلك السياسي العربي لإجراء حوار صحفي معه، ترجمت السؤال للزميل الأجنبي وبدا لي أنه أيضا مهتم بسماع إجابتي، فقلت للاثنين بالإنجليزية ما ترجمته:

إن فكرة محطة عربية ناطقة بالإنجليزية فكرة نبيلة من حيث هدفها، لكن رأيي المتواضع أن هذه الغاية لا يمكن أن تتحقق على أيادي إدارة صحفية أجنبية، **ووجهت كلامي إلى الصحفي الياباني قائلا:** تخيل لو أن

بلدك اليابان قررت إنشاء محطة في وزن الـ"إن إتش كي" للتواصل مع الرأي العام الهندي أو الصيني، وأن الحكومة اليابانية أسندت المهمة إلى صحفيين من هاتين الدولتين المنافستين، هل تراهم يستطيعون فعلا نقل الرسالة الإعلامية اليابانية إلى الهنود والصينيين بشكل جيد؟ هز الياباني كتفيه ومط شفتيه تعبيرا عن النفي.

توجهت بكلامي بعد ذلك إلى السكرتير الصحفي للمسئول العربي: لقد سألت أنا يوما ما نفس سؤالك الدكتور عبد الوهاب المسيري (يرحمه الله). **وقلت له:** "باعتبار أنك عشت ردحا من الزمن في أميركا وتعرف خصائص الرأي العام والصحفيين الأميركيين والأوربيين عموما؛ هل تعتقد أن الأخيرين يمكن أن ينقلوا ويعكسوا أحداثنا العربية وقضايانا بشكل موضوعي وبلا تأثيرات سلبية ناتجة من قناعاتهم المسبقة أو ضحالة معرفتهم بثقافتنا وهويتنا؟".

وواصلت إجابة سؤالي قائلا لسكرتير الزعيم العربي: إن الدكتور المسيري يرحمه الله رد عليّ قائلا: "ولم لا"؟ ثم أردف: إن هؤلاء الأجانب العاملين في الجزيرة "الإنجليزية" جاءوا إليها من أجل المال الوفير الذي يتقاضونه كرواتب وحوافز ومزايا.

لم تعجبني إجابة المسيري وراجعته متسائلا: حتى لو كان لدى الأسماء الكبيرة من الصحفيين الأميركيين والأوروبيين أجنداتهم الخاصة؟

ثم أضفت: إن هؤلاء الزملاء ليسوا في مرحلة عمرية تجعلهم يتنازلون عن قناعاتهم المسبقة من أجل تحصيل المال. وانتهت جلستنا على الاختلاف.

وعدت إلى سائلي: لقد مر عام ونيف على بدء الجزيرة الناطقة بالإنجليزية، فهل تعلم أن عددا من كبار صحفييها الأجانب استقالوا أو "استقيلوا"؟ وهل تعلم أن إدارة شبكة الجزيرة تداركت الموقف بإنشاء قسم جديد أطلق عليه وحدة "الشرق الأوسط"؟ وقد أسندت إليها متابعة وتصحيح أية أخطاء ناجمة عن ضعف معرفة الزملاء الأجانب بخلفيات وثقافة المنطقة، ومن حق مسئولي تلك الوحدة التدخل لتصحيح أو منع أية أخطاء. الوحدة كان يرأسها حتى نهاية عام 2009 رئيس تحرير الجزيرة السابق الزميل إبراهيم هلال بمسمى نائب مدير، ويساعده خبيران؛ أحدهما من أمهر وأقدم الصحفيين التليفزيونيين المصريين العرب، أما الآخر فيحمل درجة الماجستير في العلوم السياسية وقد عاش سنوات طويلة نسبيا في الولايات المتحدة.

شاهدة من أهلها

وقد حدث قبل أسابيع من تسليم مخطوطة هذا الكتاب إلى دار النشر أن التقيت بصحفية أجنبية ممن يعملون في محطة عربية ناطقة بالإنجليزية وقد سبق لها العمل في إحدى محطات تليفزيون بلدها الأوروبي الكبير، لفت نظري تحدثها بلغةٍ عربية لا بأس بها، عرفت منها أنها غير راضية عن أداء إدارة تحرير المحطة العربية.

وقد سألتها: لماذا قررت أن تأتي إلى منطقتنا؟ **أجابتني قائلة**: "قررت المجيء بعدما شاهدت مناظر وحوادث الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين في أوائل أيام الانتفاضة الأولى، كنت طالبة أعد رسالة دكتوراه في العلوم السياسية عن الجاليات العربية في فرنسا، وهناك حدث أن التقيت بمجموعة من الدارسين العرب فأصبحنا أصدقاء وكنت

الأجنبية الوحيدة بينهم. **وتضيف:** كانوا يشاهدون الأخبار القادمة من المنطقة العربية بانفعال فشاركتهم في البداية من باب المجاملة، ثم قررت الاهتمام أكثر بالقضية والمجيء إلى المنطقة بعدما التحقت بالعمل كصحفية في محطة تليفزيون كبرى في بلدي، **وردًا على سؤال:** أين تعلمت اللغة العربية؟ **قالت:** نصحني زملائي العرب بأن أتعلم العربية في بيروت. وهناك زرت مخيم برج البراجنة، وتطورت علاقتي بمسئوليه فكنت أعلم أطفال المخيم اللغة الإنجليزية.

سألتها: وهل زرت إسرائيل؟ **قالت:** نعم.

أكدت لي الزميلة أن معظم مسئولي التحرير في وسائل الإعلام في بلدها الأوروبي الكبير يعملون ألف حساب كي لا يغضبوا إسرائيل، وكثيرا ما ينحازون ويحرفون المواد الآتية من مراسليهم المقيمين في المنطقة العربية.

فوجئت أن هذه الصحفية غير راضية عن تسليم إدارة تحرير المحطة العربية التي تعمل بها لأجانب، **وقالت لي:** إن بعضهم لا يعرفون ثقافة المنطقة العربية، أو يتصرفون كأنهم لايزالون يعملون في محطاتهم البريطانية أو الأميركية السابقة، هذا ما لم يكن لهم انحيازاتهم وأجنداتهم السياسية المسبقة. **قلت لها:** إن إدارة الشبكة تنبهت لهذه القضية وخصصت فريقا عربيا لمتابعة وتوجيه زملائها الأجانب إلى ما لا يعرفونه أو للحد من انحيازاتهم. **أجابتني قائلة:** إن وحدة الشرق الأوسط التي استحدثت خصيصا لتصحيح الأخطاء أو للحد من انحيازات الأجانب لا تملك صلاحيات قوية أو ربما اعتبر رأيها استشاريا.

وتقول الصحفية الأجنبية أنها تعتقد أن صغر دولة قطر لا يساعد الصحفيين الأجانب المقيمين والراغبين في التعرف على المنطقة العربية من الداخل. **وتضيف**: "أنا شخصيا لازلت أتحمل البقاء لأنني وجدت في قناة الجزيرة بالعربية نخبة من صحفيي الدول العربية، وأنا أستشير بعضهم بشأن الأحداث في الوطن العربي". (انتهى الاقتباس).

وبعد...،

فثمة حاجة ماسة إلى بحوث المشاهدين لكي تقطع الشك باليقين، ولابد أن تجرى تلك البحوث بأمانة وعلمية وصدق؛ ضمانا لصحة نتائجها، وأقصد بالنتائج أن نعرف على وجه الدقة من هي الشرائح الأجنبية المستهدفة؟ وهل تستطيع محطة عربية مثيرة للجدل في بيئتها الثقافية أن تقنع الرأي العام والنخب الأجنبية وصناع القرار غير العرب لمجرد امتلاكها إمكانات مالية وتقنية؟

هل رجل الشارع في أميركا أو بريطانيا أو اليابان أو الصين أو حتى نيجيريا أو سيريلانكا سوف يعطي ظهره للـ بي بي سي أو الـ سي إن إن فضلا عن محطات بلاده، كي يشاهد خدمة ناطقة بالإنجليزية تبثها محطة عربية ذائعة الصيت؟

ربما يجيب البعض: نعم سوف يتجه بعض الأجانب إلى مشاهدة الخدمة الإنجليزية العربية الممولة بأموال العرب، وبالذات في فترات قصيرة كحرب تنخرط في رحاها شباب الجيوش الأجنبية، أو في حالات منع دخول مراسلي صحافة الغرب إلى بعض الدول العربية.

من المعلوم أن الولايات المتحدة كقوة عظمى لم تتردد في استخدام القوة الخشنة ضد قناة الجزيرة. وقد دمرت عمدا مكتبيها في أفغانستان والعراق، وقتلت أحد زملائنا في بغداد شر قتلة عام 2003، ومع ذلك فقد أرسلت أميركا قبل سنوات قليلة باحثين أكاديميين لدراسة قناة الجزيرة من داخلها ومعايشة العاملين فيها. وقد عرفت شخصيا باحثة من هؤلاء جاءت ومكثت أسابيع في غرفة الأخبار بدعوى إجراء بحث أكاديمي لجامعة أميركية. وقد ظلت الباحثة تطلب من بعض مسئولي التحرير تسجيلات كاملة لنشرات حصاد اليوم على مدى شهر أو يزيد. ولما يئست الباحثة من الحصول على تلك التسجيلات اهتدت إلى حل بسيط وهو: تسجيل النشرات بانتظام. ثم استأجرت من قام بتفريغ وترجمة الشرائط من العربية إلى الإنجليزية. وقد فهمت من الباحثة أنها كانت تبحث وتراقب مستوى مهنية الجزيرة في تعاملها مع أخبار الملف النووي الإيراني وملف العراق في فترة زمنية طولها شهر، عام 2006.

دكتوراه عن المراسلين الأميركيين في منطقتنا

عندما كنت بصدد الانتهاء من مخطوطة هذا الكتاب تلقيت من زميل صحفي أجنبي مقيم بالقاهرة نسخة رسالة دكتوراه بعنوان: التغطية الإعلامية للمراسل الأميركي لقضايا الشرق الأوسط: دراسة تطبيقية على القائم بالاتصال. الرسالة أعدها الباحث السعودي مطلق سعود المطيري – جامعة عين شمس عام 2007. وقد اختار عينة من ثلاثين من المراسلين الإعلاميين الأميركيين في القاهرة، ومضمون ما بث أو نشر في كل من قناة

سي إن إن ووكالـة أنبـاء أسيوشـيتد بـرس وجريـدة لـوس أنجلـوس تـايمز وإذاعة صـوت أميركا وجريـدة واشـنطن بوسـت، الإطـار الزمنـي للعينـة التحليلية كان ستة أشهر من أكتوبر 2004 إلى مارس عام 2005.

وقد اطلعت على الرسالة مثمنا موضوعها، وفيما يلي موجز لأهـم مـا خلصت إليه:

- قام الباحث بتحليل (724) موضوعا جـاءت موادهـا في وسـائل الإعلام الأميركية عن الأحداث والقضـايا التـي طـرأت عـلى منطقـة الشرق الأوسط في ستة أشهر، وهي تمثل ذروة الأحداث في المنطقة والتي تبدأ مع نهايات عام 2004 حتى مارس 2005.

- توصلت الدراسة إلى حقيقة مهمة مفادهـا: أن الإعـلام الأمـيركي يمثل اليوم جزءا مهما من النظام السياسي الأمـيركي، وأن المراسـل الإعلامـي لوسائل الإعلام الأميركية في العالم يعد أحد أهم المصادر التي تعتمد عليهـا الخارجية الأميركية لتزويدها بالمعلومات التـي تحتـاج إليهـا عـن المنـاطق والقضايا التي تدخل الولايات المتحدة طرفا فيها.

وتحت عنوان (النتائج العامة للدراسة) أجتزئ الفقـرات التاليـة مـن ختام تلك الرسالة العلمية المهمة:

* يتضـح أن عوامـل القـدرة المهنيـة والإلمـام بقضـايا المنطقـة وشـئونها والقدرة على استخدام اللغة العربية كانت من أهم أسباب اختيار المراسلين للعمل في منطقة الشرق الأوسط بغض النظر عـن كـون هـذا القـرار مجـرد رغبة من الرؤساء، أو كونهم يملكون علاقات وثيقـة مـع القـوى الفاعلـة في

المنطقة، وهو ما يشير إلى أن قرار الإيفاد يأتي غالبا من منظور رغبة المحررين أنفسهم وتطلعاتهم لتغطية شئون المنطقة.

* تشير النتائج إلى أن المراسلين الإعلاميين قد اعتبروا أن أهمية منطقة الشرق الأوسط وموقعها الإستراتيجي يأتي في مقدمة الدوافع التي جعلت مؤسساتهم الإعلامية توفدهم إليها (بنسبة بلغت 93.3%) من إجمالي الأسباب والدوافع المطروحة.

* أشارت نتائج التحليل إلى أن (50%) من إجمالي المبحوثين يؤكدون وجود صعوبات كثيرة تواجههم في تنفيذ المهام التي يقومون بها، في حين ذكرت نسبة (33.7%) أنهم يواجهون صعوبات إلى حد ما في تنفيذ مهامهم، وذكرت النسبة الباقية أنهم لا يواجهون صعوبات. في مقدمة تلك الصعوبات تجاهل القوى السياسية لدعوة المراسلين لتغطية أنشطتها، وقد احتلت هذه الصعوبة نسبة (84.6%) تلاها وجود قيود أمنية واسعة في بعض البلاد وقد حظيت بنسبة كبيرة أيضا بلغت (76.9%)، ثم نظرة الشك والريبة من بعض القوى السياسية تجاه دور المراسل الخارجي وحظيت بنسبة (61.5%).

* أكدت الدراسة أن المراسلين الأمريكيين يعتمدون على عدد من المصادر الرئيسية عند تغطيتهم لشئون الشرق الأوسط جاء في مقدمتهم: المفكرون والخبراء والمتخصصون بنسبة (22.4%) من إجمالي المصادر، تلتها فئة المصادر الرسمية في جهاز السلطة التنفيذية بنسبة (20.7%)، ثم: منظمات المجتمع المدني، ثم: ملاحظات المراسلين المباشرة من خلال معايشة الواقع والمشاركة في الأحداث، وتراجعت درجة الاعتماد على

المصادر الأخرى، مثل: المصادر القضائية والتشريعية، في حين احتلت المصادر الحزبية والجمهور العام مراتب متوسطة بين الفئات السابقة.

* **تشير نتائج الدراسة إلى أن:** المراسلين الأميركيين أكدوا على بعض الملامح الإيجابية في تصوراتهم نحو الشعوب العربية والإسلامية، يأتي في مقدمتها: "أن هذه الشعوب تتمتع بقدر كبير من "الطيبة". وقد بلغت نسبة هذه الملامح (40%) من إجمالي التصورات المطروحة، وكذلك اعتقادهم "بمعقولية مستوى الوعي السياسي لشعوب المنطقة" بنسبة (12%)، وأن نسبة كبيرة منهم لا تؤمن بأهمية التجرد الكامل من التصورات والقناعات الذاتية عند معالجتهم لشئون العالم العربي والإسلامي، الأمر الذي يمكن قياس أثره المباشر على رسائلهم المنقولة المتأثرة بهذه القناعات، وفقا لإجاباتهم أنفسهم، الأمر الذي يستدعي - وباستمرار- فتح حوارات مع هذه الفئة المهمة، ومناقشة تصوراتهم بشكل موضوعي في حلقات نقاش موسعة، دون محاولة التأثير المباشر فيهم(!!!) ومحاولة تصحيح ما قد يبدو ملتبسا لديهم نتيجة الاختلافات الثقافية القائمة.

* تشير النتائج إلى أن وسائل الإعلام الأميركية تقدم صورة غير متكاملة عن الواقع العربي والإسلامي، حيث حظي هذا البعد بنسبة كبيرة بلغت (93.3%) يمثلون إجمالي من وافق على هذه المقولة من المراسلين الأميركيين، كما أنهم يعتبرون هذه الوسائل تقدم - فقط - صورة مشابهة لهذا الواقع، وبنسبة (76.7) يعتقدون أنها تقدم صورة مشوهة للواقع العربي والإسلامي، في حين ترى نسبة (33.3%) أن هذه الوسائل الإعلامية تقدم صورة مغايرة للواقع العربي والإسلامي، وتعتقد النسبة الأقل (6.7%)، أن هذه الوسائل الإعلامية تقدم صورة مطابقة للواقع،

وهي نتيجـة تشـير إلى إدراك المراسـلين أنفسـهم إلى أن رسـائلهم ورسـائل غيرهم يتم إخضاعها لعملية مهنية أخرى تسهم في عدم نقـل الواقـع مـن خلال صور موضوعية أو متكاملة.

* عنـد تغطيـة أخبـار الشرق الأوسـط في الإعـلام الأمـيركي **يلاحـظ أن:** بعض المحللين يتبنون الموقف الإسرائيلي، وفي المقابل يقـدم الـبعض الآخـر انتقادات هادئة للموقف الإسرائـيلي مـن وجهـة نظـر متعاطفـة، ويظهـر طرف ثالث بصـورة محايـدة ودون اتخـاذ موقـف واضـح. لكـن لا يوجـد ضمن هذا التباين من يتبنى الموقف العربي أو الإسـلامي في أي مـن هـذه القضـايا، ولـذلك فـإن المـواطن الأمـيركي يشـعر بإحسـاس زائـف بتبـاين المواقف، ولكنها في النهاية بمجموعها تصب في صالح التيار الصهيوني، عـلى الرغم من أن نسبة اليهـود بـين الشـعب الأمـيركي لا تتجـاوز (2.8%) مـن إجمالي السكان. أي أن اليهود لا يزيدون عن مواطن واحـد مـن كـل (40) أميركيا. في حين تصل نسبة الوجود اليهودي فيها إلى ما يزيـد عـن (70%) من المناصب القيادية، وتصل نسبتهم في الوسائل الإعلامية إلى (95%).

* **تشير نتائج الدراسة إلى:** أن الجوانـب الإيجابيـة التـي ركـزت عليهـا تقارير المراسلين الأميركيين في تغطياتهم لشئون منطقة الشرق الأوسط يأتي في مقدمتها حرص الشعب العربي على تحقيـق التغيـير الـديمقراطي، وقـد حظي هذا البعد بنسبة كبيرة؛ بلغت (58.3%) تمثل جملة من ذكروا هذا الملمح الإيجابي في تقاريرهم من المراسـلين الإعلاميـين الأميركيـين في الشرق الأوسط، تلاه سعي هذه الدول والشعوب في البحث عن قواسـم مشـتركة تجمعها مع الشعوب الأخرى ... إلخ.

* **أكدت الدراسة أن** هناك أربعة جوانب سلبية ركـزت عليهـا تقـارير المراسلين الأميركيين؛ جاء في مقدمتها: الاسـتبداد والقمـع اللـذان تمارسـهما السلطة التنفيذية تجاه المواطنين، حظي هذا الملمح بالمرتبة الأولى بنسـبة (45%)، تلاه: استسلام الشعوب لتجريدها من حقوقهـا، وغيـاب منظومـة حقوق الإنسان بنسبة واحـدة لكـل بلغـت (30%) ثـم وجـود قـدر مـن التعصب والتطرف لدى الشـعوب في هـذه الـدول بنسـبة بلغـت (25%)، وهي ملامح يغلب عليها البعد السياسي والحقوقي المتمثل في تراجع قـيم الديمقراطية وآلياتها، وضـعف المشـاركة الشـعبية في الحكـم ومسـئولياته، إضافة إلى البعد الثقافي الديني المتمثل في وجود قدر مـن التطـرف المبنـي على أسس دينية لدى شعوب هذه المنطقة أو بعض تياراتها.

* **أكدت نتـائج الدراسـة أن** المراسـلين الأميركيـين يعتقـدون أن إرسـاء المزيد من ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسان في العـالم العـربي والإسـلامي يعد من أهم الآليـات والـرؤى التـي يمكـن أن تسـاهم في إعـادة تصـحيح صورة هذه الدول والشعوب؛ حيث احتل هذا البعـد المرتبـة الأولى، يليـه أهمية دور المراسلين الخارجيين في الكتابة عن العالم العربي وشئونه بمزيـد من الموضوعية.

* **أثبتت الدراسة أن** المراسلين الأميركيـين أكـدوا أن ثمـة آليـات أخـرى يمكن أن تساعد في تصحيح الصورة النمطيـة المشـوهة عـن العـالم العـربي والإسـلامي، وتتمثـل في: إذكـاء روح التعـاطف مـع العـالم العـربي وتفسـير وتحليل ردود أفعاله، وقد حظيت بنسبة (31.8%) من المراسلين الأميركيين في منطقـة الشرق الأوسـط، ويعتقـد الباحـث أن الدبلوماسـية العربيـة

ومكاتبها الثقافية والإعلامية منوط بها - إلى جانب وسائل الإعلام بـالطبع- أن تلعب دورا فاعلا في هذا الصدد، من خلال تفعيل الاتصال بالشعوب الغربية نفسها، وشرح وتفسير مواقف الدول العربية والإسلامية وقضاياها وشئونها المختلفة، والتحديات التي تواجهها.

* **أشـارت نتـائج الدراسـة إلى أن:** (3.3%) مـن المراسـلين الأميركيـين يؤكدون أن: العرب يتخذون موقفا عدائيا من الغرب، في حين ذكرت نسبة (73.3%) من المراسلين أن العرب يتخذون موقفا عدائيا من الغرب إلى حد ما، وذكرت النسبة الباقية (23.3%) من المراسلين الأميريكيين أن العرب لا يتخذون موقفا عدائيا من الغرب، بينما النسبة الغالبة من المراسلين الإعلاميين الأميركيين في منطقة الشرق الأوسط يعتقدون أن: الشعوب العربية والإسلامية تتخذ مواقف عدائية مع الغرب.

* **كشـفت نتـائج الدراسـة أن:** (73.3%) مـن المراسـلين الأميركيـين يؤكدون أن: العالم العربي في حاجة إلى تدعيم علاقاته مع الغرب، ونسبة (20%) منهم: أنهم في حاجة إلى حد ما، وذكرت النسبة الباقية (6.7%): أنهم ليسوا في حاجة لتدعيم علاقاتهم مع الغرب. وأن النسبة الغالبة من المراسلين (93.7%) يرون أن: العالم العربي يحتاج لتدعيم علاقاته مع الغرب حيث إن تدعيم العلاقة مع الولايات المتحدة خاصة يساعد الدول العربية في استلهام التجربة الديمقراطية الغربية في دعم الحريات. (نلاحظ أن توقيت إعداد رسالة الدكتوراه تزامن مع توجه قصير العمر من إدارة بوش المنصرفة بشأن دمقرطة العالم العربي كوسيلة للحد مما يسمى الإرهاب، وقد تلاشى هذا التوجه بمجرد فوز الإخوان المسلمين في مصر

بنسبة تناهز عشرين بالمائة من عضوية البرلمان المصري برغم التزوير الثابت والعلني، وبعدهم فازت حماس عام 2006 بأغلبية المجلس التشريعي الفلسطيني).

* **وتشير الدراسة إلى أن:** نسبة كبيرة من المراسلين الإعلاميين الأميركيين بلغت (80.8%) يرون أن: الولايات المتحدة تستفيد من علاقاتها مع بعض الدول العربية في تحقيق استفادة اقتصادية كبيرة، خاصة من الثروة النفطية لدى دول الخليج، لاسيما السعودية، كذلك أكدت الدراسة أن: (50%) من المراسلين يرون أن: الولايات المتحدة تحقق استفادة اقتصادية أخرى تتمثل في التعاون الاقتصادي مع هذه الدول وفتح أسواقها الكبرى، وكذلك إتاحة الفرصة لاستثماراتها للتوغل في المنطقة.

* وذكرت نسبة (11.5%) من المراسلين أن: الولايات المتحدة تستفيد من الدور المصري الإقليمي في المنطقة الرامي لتحقيق المفاوضات بدلا من الصراعات المسلحة.

* **أكدت الدراسة أن:** ثمة أدوار يلعبها المراسل الخارجي تساهم في دعم السياسة الخارجية لدولته، وحصل هذا الدور على المرتبة الأولى بنسبة (96.7%) وكذلك مساهمة المراسلين في إدارة بعض الأزمات الدولية من خلال ما يقدمونه في تقاريرهم من بيانات ومعلومات وخلفيات مرتبطة بالأزمة، تساعد صانعي القرار على اتخاذه في ضوء توجهات الرأي العام، وقد أكدت نسبة (46.7%) من المراسلين الإعلاميين في المنطقة إمكانية قيام المراسل بهذا الدور.

* **أظهـرت الدراسـة أن:** نسـبة (83.8%)مـن المراسـلين الأميركيـين في منطقة الشرق الأوسط يؤكدون أن: السياسة الخارجية لدولتهم تـؤثر عـلى دورهم كمراسلين في الخارج، في حين ذكرت النسبة الباقيـة (16.7%) أنهـا لا تؤثر على عملهم.

وفي ختام الرسالة قدم الباحث السعودي اثنتا عشرة توصـية، أختـار منها ما أعتبره أكثر أهمية:

1- عقد المزيد من اللقاءات مع المراسلين الأجانب.

2- تشجيع ودعم جهود الترجمة المتبادلـة مـن العربيـة إلى اللغـات الأجنبية والعكس.

3- ضرورة الـتخلص مـن التبعيـة الإعلاميـة الأميركيـة في النـواحي الخبرية، أو التسليم الكامل بصدقية ما تبثـه وكـالات الأنبـاء العالميـة، وأن تتم عملية الانتقـاء للمعلومـات مـن خـلال محـررين محترفـين يـدركون بحسهم القومي توجهات الرسائل الإعلامية التي تستهدفها وسائل الإعـلام الأجنبية والأميركية على وجه الخصوص.

4- ضرورة أن تكف وسائل الإعلام العربية عن تشويه الصـورة التـي عليها مجتمعاتهم، على اعتبار أن الإعـلام الأمـيركي في الكثـير مـن تغطياتـه يقوم على رصد ما تكتبه هذه الوسائل عن مجتمعاتها.

5- دراسة المراسل الأجنبـي كامتـداد تـاريخي للاسـتشراق، والتركيـز على الجانب الإيجابي في العملية الاستشراقية.

6- دعم المشاركة المهنية الأجنبية في المؤسسات الإعلامية العربية، لما للاحتكاك المباشر من دور في توضيح الصورة الذهنية وتغيير المدركات الفكرية.

7- تسهيل حصول المؤسسات الإعلامية الغربية عامة والأميركية خاصة على الإنتاج العلمي العربي وخاصة في المجال الإعلامي.

وقد وضع الباحث استمارة (تحليل مضمون) تضمنت عدة جداول:

ونقرأ في الجدول الأول: مسلسل القضايا التي أخضعها الباحث للتحليل، وأسماء تلك القضايا، وهي:

1- حل قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

2- قضية الإرهاب وأعمال العنف.

3- قضية الشرق الأوسط الكبير.

4- قضية الإصلاح السياسي في المنطقة.

5- قضية احتلال أميركا للعراق.

6- قضية السلاح النووي الإيراني.

الجدول الثاني:

تضمن العناوين التالية: اسم الوسيلة الإعلامية، وتاريخ المادة المفحوصة، والفن الصحفي المستخدم. وقد صنفه بين مواد إخبارية ومواد استقصائية (حوار- تحقيق) ومواد رأي.

الجدول الثالث: جاء عنوانه: فئة القضايا والمضامين المطروحة:

واشتمل على ما يلي: حل قضية الصراع العربي الإسرائيلي من وجهة نظر عربية، ثم تبعه بباقي القضايا المبحوثة، ثم قسم الموقف والاتجاه من القضية إلى ثلاثة:

(مؤيد – محايد – معارض)

وأورد الباحث أسانيد التأييد للقضية والمعارضة لها، ثم خانة للملاحظات.

الجدول الرابع: هو اسم الوسيلة:

واشتمل على العناوين التالية: ملامح صورة الدول العربية كما تعكسها التغطية: مفردات الصورة السياسية، الملامح السلبية للصورة السياسية، مسارات البرهنة والأسانيد المطروحة، وتحت ذلك نقرأ أفقيا في قمة الجدول: مسلسل المادة، تاريخ المادة، غياب الديمقراطية والحريات، استبداد نظم الحكم وفسادها، توريث السلطة، عدم نزاهة العمليات الانتخابية، تغييب دور قوى المعارضة السياسية، تهميش دور المجتمع المدني، فقدان الثقة بين الشعوب والنظم الحاكمة، أخرى تذكر.

وتكرر الجدول السابق، لكن ليتناول الملامح الإيجابية للصورة السياسية:

وهي بحسب ترتيبها أفقيا على رأس الجدول: وجود نوايا للإصلاح السياسي، وتزايد دور المعارضة السياسية في العمل العام، تزايد دور مؤسسات المجتمع المدني، تزايد هامش حرية الصحافة والرأي والتعبير، إجراء إصلاحات دستورية وتشريعية، الإشراف القضائي والدولي على العملية الانتخابية، أخرى تذكر.

وعلى صعيد مفردات الصورة الاقتصادية السلبية والإيجابية تناول الباحث ذلك في جداول مشابهة لكل وسيلة من وسائل الإعلام الأميركية التي اختارها.

وطبق نفس المنهج على الصورة الثقافية والصورة الاجتماعية، وبعد ذلك تحدث الباحث في جداول أيضا عن مصادر المراسل الأميركي في وسائل الإعلام موضوع البحث.

ثم تناول مفردات كل من صورة الشعوب وصورة القادة والزعماء، أما استمارة الاستبيان على القائم بالاتصال (أي المراسلين الإعلاميين الأميركيين في المنطقة) فقد تضمنت ثمانية وثلاثين سؤالا محددا مع عدد من الخيارات للإجابة، الاستمارة بدأت بالسؤال عن مدى إجادة المراسل للغة العربية، وسبب اختيار المؤسسة الإعلامية له للعمل في المنطقة، ونوع الصعوبات التي يواجهها في عمله، والمصادر التي يعتمد عليها، ومدى تدخل المقر الرئيسي تحريريا فيما يرسله المراسل من مواد، والجوانب السلبية والإيجابية التي رصدها .... وغير ذلك حتى السؤال الأخير الذي جاء كالتالي:

من وجهة نظرك ما تصورك لمستقبل العلاقة بين الغرب عموما والولايات المتحدة خصوصا وبين شعوب ودول المنطقة العربية والإسلامية؟

* * *

ملحقان

1 - حكاية مركز الدوحة لحرية الإعلام

جاءت فكرة هذا المركز كمكرمة قطرية لرعاية أي صحفي أو إعلامي يتعرض هو أو أسرته للاضطهاد بسبب أدائه المهني. وتقرر أن تسند مهمة إدارة المركز لشخصية مشهورة في مجال حماية الصحفيين، فوقع الاختيار على الفرنسي روبير مينار كمسئول سابق عن منظمة مراسلون بلا حدود، أعلنت الدولة القطرية عن تأسيس المركز وقد حضرت حرم الأمير بنفسها مؤتمرا صحفيا لهذا الغرض، بدأ المركز أنشطته الفعلية، وخصصت قطر مقرًا وميزانية كافية لهذا الغرض النبيل، وفي ذكرى تأسيسه الأولى أصدر المركز تقريره الأول عن حرية الإعلام في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وقدم مينار ملخص التقرير للصحفيين في مؤتمر صحفي كبير بالدوحة حضره عشرات من الصحفيين، في ذلك المؤتمر حمل مينار على أوضاع الصحافة والصحفيين في دولة قطر، وأنذر حكومتها بأنه سيعطيها مهلة حتى مايو 2009 لتغيير قانون الصحافة وللسماح بتأسيس نقابة أو اتحاد للصحفيين وإلا فسوف يتخذ من الإجراءات ما يحفظ للمركز صدقيته.

حضرت بنفسي ذلك المؤتمر الصحفي، واندهشت كثيرا من اللهجة الشديدة التي تحدث بها السيد مينار تجاه قطر وسلطاتها، بعد ذلك جرت مياه كثيرة في النهر، من ذلك ما قد يعد أحد دوافع تسريع هجمة مينار على سلطات قطر الإعلامية بل والسياسية، إنها الهجمة الوحشية الدموية الإسرائيلية على غزة، والتغطية المهنية الجيدة التي مارستها قناة الجزيرة أثناء

مأساة قتل أهلنا الفلسطينيين وتدمير بيوتهم ومساجدهم وضرب مستشفياتهم ومدارسهم بل ومقر تابع للأمم المتحدة.

بعد ذلك مباشرة - أي في مارس 2009- دعت دولة قطر الرئيس السوداني عمر البشير لحضور القمة العربية العادية بالدوحة، وقد حضر بالفعل برغم طلب المحكمة الجنائية الدولية تسليمه، بتهم ارتكابه جرائم حرب ضد شعب دارفور، فوجئ المراقبون والإعلاميون في قاعات المؤتمر ببيان أصدره مركز الدوحة لحرية الإعلام يهاجم فيه دعوة قطر البشير.

بعد فترة حدث سجال صحفي منشور بين مينار وبعض رؤساء التحرير القطريين، ثم طرد الرجل (أو قدم استقالته)، وقد هاجم مينار بعض المسئولين القطريين، واستثنى حرم الأمير التي كال لها المديح، وقد يؤول ما أقدم عليه وما وزعه عبر البريد الإليكتروني كمحاولة للدس وإثارة حفيظة مسئولين كبار في الدولة ضد بعضهم البعض.

وفيما يلي الخبر الذي كتبته عن المؤتمر الصحفي الذي عقده مينار في الذكرى الأولى لتأسيس المركز ومقابلتين أجريتهما مع مينار ومع رئيس تحرير جريدة الشرق القطرية، لعل الخبر والمقابلتين يكشفون مزيدا من التفاصيل عن القضية التي أعتبرها نموذجا فريدا من ممارسات بعض الإعلاميين الأجانب في بلادنا.

نص الخبر الذي أرسلته إلى جريدة أساهي اليابانية (المكتب الإقليمي بالقاهرة):

انتقد مدير عام مركز الدوحة لحرية الإعلام روبير مينار - بصراحة غير مسبوقة- دولة قطر على ما أعده غياب حرية الصحافة فيها. وهدد مينار، وهو صحفي فرنسي سابق كان يـرأس منظمـة مراسـلون بـلا حـدود، بـأن يتخذ موقفا يحفظ مصداقية المركز الذي تأسس في العاصمة القطرية منذ شهور إذا لم توقع قطر على العهد الـدولي الـذي يضـمن الحقـوق المدنيـة والسياسية".

وبرغم إشادته بالحرية التي تتمتع بها "الجزيرة" كمحطة تليفزيونيـة قطرية، إلا أن مينار ذكَّرَ الصـحفيين الحـاضرين في مـؤتمر صـحفي عقـده الاثنـين 9 فبرايـر 2009- بـأن قنـاة الجزيـرة لا تتنـاول الأحـداث القطريـة الداخلية.

وقال مينار في المؤتمر: إن حرية الصحافة في قطـر وفي الـدول العربيـة الأخرى "غير محترمة"، وقد أعلن تفاصـيل ذلـك ضـمن أول تقريـر سـنوي يـنشره المركـز مـن المنطقـة العربيـة بعنـوان: "حريـة الإعـلام في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا".

وبالإضافة لقطر وجه التقرير انتقادات حادة لدول عربية أخرى، مثل: السعودية، وسـورية التـي وصـفها بأنهـا تعمـل وفـق "تشريعـات رجعيـة قامعة للحريات"، وانتقد التقرير مـا سـماه "المحـاكمات المتكـررة في مصر والجزائـر والـيمن ، والغرامـات الفادحـة للصـحافيين كـما في الكويـت والمغرب".

وقال مينـار متحـدثا عـن قطـر: إن السـلطات لا تعطينـا الصـلاحيات اللازمة حتى نقوم بعملنا على النحو المطلوب، وهنـاك دول عربيـة كثـيرة تحظر إقامة نقابات خاصة بالصحافيين ومن بينها قطر".

وأضاف: "من غير الوارد استمرار عمل المركز هنا دون تعديل قانون الصحافة الذي يضيق على الصحفيين ولا يزال ساريا منذ السبعينيات، وما لم توقع قطر على الميثاق الدولي الذي يضمن الحقوق الصحافية والحقوق المدنية والاقتصادية".

وقال: إن الإدارات في الصحف القطرية ينبغي أن تتخلى عن إجراءات مثل: "الاحتفاظ بجوازات الصحفيين العاملين لديها"، داعيا إلى "منح الصحافيين في قطر الحق في تشكيل نقابتهم".

هذا وقد حدد شهر مايو 2009 لتنفيذ قطر ما يؤكد مصداقيتها في حماية حرية الإعلام وإلا فسوف يتخذ المركز خطوة - لم يحددها، **وقال**: "في حالة لم تتخذ خطوات لتغيير التشريعات الخاصة بالصحافة في قطرن وفي حالة ما إذا تغاضت الصحافة المحلية ولم تنشر ما ورد بالمؤتمر الصحافي، سنرد على ذلك، وسيكون لنا موقفنا".

وحول ما جرى لوفد المركز في غزة قال مينار: إن السلطات في مصر وإسرائيل تضامنت لمنع دخول وفد المركز الذي حمل البدلات الواقية من الرصاص والأقلام والأوراق لزملائهم من الصحافيين في غزة".

وأوضح أن المسئولين في مصر قالوا لهم: "إنكم قادمون من قطر، ونحن لا نحب دولة قطر"، **مشيرا إلى أن**: "وفد المركز سيتوجه قريبا إلى غزة في محاولة لإنشاء مركز للصحافة هناك".

وكان روبير مينار قد أطلق في منتصف أكتوبر 2008 "مركز الدوحة لحرية الإعلام" الذي حدد أهدافه بالعمل على حماية الصحافيين في كافة أنحاء العالم وخاصة الدول العربية.

وانطلق مركز الدوحة بموجب مرسوم أصدره أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني في سبتمبر 2007.

ويتكون مجلسا الإدارة والحكماء (المشرفان على المركز) من 20 عضوا جميعهم من كبار الساسة والمفكرين من القارات الخمس، من بينهم رئيس الحكومة الفرنسية السابق دومينيك دو فيلبان والكاتب البرازيلي باولو كويلو والوزير البرتغالي السابق جوزي لويس أرنو والصحافي الأمريكي إيثان برونر ووزير الخارجية الأسباني ميجل أنخيل موراتينوس.

ومن الشخصيات العربية المشاركة في المجلسين الوزير اللبناني السابق غسان سلامة والمفكر السوري برهان غليون والناشر الكويتي جاسم بودي.

ويرأس مجلس إدارة المركز الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني (رئيس مجلس إدارة شبكة "الجزيرة" في حين يرأس مجلس الحكماء وزير الثقافة القطري حمد عبد العزيز الكواري.

* * *

المركز يثير الجدل في الصحافة القطرية

وفي مناسبة الاحتفال باليوم العالمي لحرية الصحافة بالدوحة 2 مايو 2009 طلبت مقابلة الزميل روبير مينار لمتابعة ما سبق له إعلانه بشأن تطورات قضية حرية الصحافة في قطر، بدأت مقابلتي للرجل بصفته المسئول عن إدارة مركز الدوحة لحرية الإعلام كالتالي:

* س: هل وصلتكم ميزانية المركز للعام الحالي من السلطات القطرية؟

(وكان مينار قبل أسابيع قد أجاب بالنفي، ردا على السؤال نفسه من زميلي في مكتب جريدة أساهي اليابانية في باريس. وقال مينار آنذاك: إنه لايزال بانتظار تحويل السلطة القطرية الميزانية المقررة إلى خزينة المركز).

ج: تمت الموافقة على الميزانية وأخذنا تعهدا بأن الدولة ستحولها لنا خلال الأيام القادمة، ربما تكون بعض الإجراءات البيروقراطية هي ما تبقى كي تصلنا الميزانية.

* س: كم تبلغ الميزانية الجديدة؟

ج: نحو خمسة ملايين دولار لهذه السنة أو على وجه الدقة أربعة ملايين وتسعمائة ألف دولار.

* س: وكم كانت في العام الأول (أي: هل زيدت أو خفضتها الدولة القطرية العام الحالي؟).

ج: تقريبا كان المبلغ نفسه، ولكن لتسعة أشهر، فقد بدأنا في مارس 2008، العام الحالي زيدت الميزانية التي تمت الموافقة عليها، وسبب الزيادة هو أننا نزمع افتتاح فرعين لمركزنا خارج قطر.

* س: وهل ثمة محاسبة من الدولة لكم على الإنفاق؟

ج: نعم، ولدينا في المركز قسم محاسبة خاص بنا، ونحن نقدم كشوف مصروفاتنا للدولة، ولم تصلنا منهم اعتراضات أو ملاحظات.

* س: قبل شهور قليلة سبق لك أن أنذرت سلطات الدولة القطرية في المؤتمر الصحفي الذي عقدته بمناسبة مرور عام على تأسيس المركز، وقلت: إنك تعطيهم مهلة حتى مايو (الحالي) كي يتقدموا خطوات أوسع على طريق حرية الصحافة. ترى ماذا كان رد فعل الدولة على "إنذارك"؟

ج: قابلت الشيخة موزة حرم الأمير من ثلاثة أسابيع، وأخذت منها وعدا بأنه ستكون هناك ضمانات لحرية الصحافة وأن الوضع الراهن سيتغير على عدة محاور:

الأول: على الصعيد القانوني؛ فقد أكدت لي الشيخة أن: قطر ستصدق على معاهدة حقوق الإنسان حسبما تنص عليه الأمم المتحدة.

الثاني: على صعيد قانون الصحافة في دولة قطر: وقد وعدت الشيخة بإطلاق لجنة لتغيير قانون الصحافة الحالي، وأنا (أي مينار) سوف أكون عضوا في هذه اللجنة.

ويضيف مينار أن: مركز الدوحة لحرية الإعلام أعد مشروع قانون جديد للصحافة القطرية.

ثالثا: على صعيد العمل النقابي الصحفي: أخذت وعدا من الشيخة موزة بأن الدولة سوف تسمح بتكوين جمعية للصحفيين في قطر وليس نقابة.

* س: وهل تعرف باقي أعضاء اللجنة سواء بوظائفهم أو بأشخاصهم؟

ج: لا ... لا أعرف.

* س: ولماذا ترفض الدولة فكرة النقابة؟

ج: هذا ما سألته إياها، فقالت لي: إن الدولة القطرية ليست مستعدة بعد لاستخدام هذه الكلمة، ولكن الجمعية ستقوم تقريبا بنفس دور النقابة.

* وهل اقتنعت بذلك؟

ج: دعنا ننتظر لنرى.

* س: وهل ستعطيهم فترة زمنية لتنفيذ ما وعدوك، كما فعلت في مارس الماضي بشأن توسيع هامش حرية الصحافة؟

ج: آمل أنه خلال شهور قادمة ستتقدم الأمور، ولست حاليا قادرا على تحديد عدد الشهور التي يحدث فيها التطور الموعود، أنا أثق بوعود الشيخة موزة.

* س: هل عاتبتك جهات بعينها على إنذارك المشار إليه بشأن توسيع هامش حرية الصحافة؟

ج: لم تعاتبني الشيخة ولا أية جهة في قطر.

ويضيف: لكن هناك بعض الأشخاص في الدولة غير راضين عن الموقف الحالي في مركز الدوحة لحرية الإعلام، أنا أعرف ذلك، ويكفيك قراءة بعض الصحف، إن هناك من يكتبون طبقا للأوامر.

(يشير مينار إلى ما يشبه الحملة الصحفية ضده وضد تصرفات معينة وبيانات أصدرها باسم المركز. الكتابات بدأها رئيس تحرير جريدة الشرق ثم انضم له رئيس تحرير جريدة الوطن).

* **سألت مينار**: إذا كنت تعتقد أن ثمة من يأمرون رؤساء الصحف القطرية بالكتابة ضدك وضد المركز، فما تفسيرك لهذا؟ ومن هم الآمرون بذلك في الدولة؟

ج: هذا هو الحال في هذه المنطقة من العالم، الحكم هنا ليس ذو اتجاه واحد. هناك خلافات بين من يحكمون في هذا البلد. ... هذا هو التفسير ... هناك من لا يريدون مركزا مستقلا هنا في قطر، في حين أن الشيخة فرضت هذا المركز، هناك من لا يتوقفون عن محاولة ألا يكون المركز مستقلا، إنهم يريدونه تابعا، فالمركز ينتقد أشخاصا ودولا وينتقد قطر ذاتها، المركز فيه حرية تعبير لم تكن معتادة هنا، والمركز لا يخدم دبلوماسية قطر، المركز مستقل، بينما يريد البعض أن يكون هذا المركز قريبا من الحكومة ولهذا السبب يوجد النزاع الحالي، هناك صراع داخل الدولة القطرية بين أشخاص يريدون التغيير وأشخاص يريدون بقاء الأحوال على ما هي عليه.

* س: ومن سينتصر في النهاية حسبما تتوقع؟

لا أعرف، ولكن إذا تبينت أنني سأخسر فسوف أغادر، وها أنذا لا أزال موجودا... وسأواصل الصراع. حتى يوم أمس كتب من كتب، يرون أن المركز لم ينجح، وهم يستهدفونني شخصيا؛ جريدة الشرق، وانضمت لهما مؤخرا جريدة الوطن، هل يصدق أحد أن رئيسي تحريرهما يكتبان ما كتبا بناء على قناعاتهما الشخصية؟

* س: هل التقيت بالأمير كما التقيت مرارا بحرمه بخصوص المركز؟

ج: التقيت به مرة واحدة فقط.

* س: ممن تعتقد أن رئيسي تحرير هاتين الجريدتين يتلقون أوامرهم بالكتابة ضد المركز وضدك شخصيا؟

ج: أمتنع عن الإجابة عن هذا السؤال.

* س: وما ردك على اتهامات جابر الحرمي رئيس تحرير الشرق لك شخصيا بالكذب وقد كذبك في قولك: إنك دفعت مساعدات لصحفيين عراقيين، بينما ينفي هؤلاء الصحفيون ذلك؟

ج: جابر الحرمي يكتب أكاذيب، كل وثائق مساعدتنا وأعمالنا منشورة على موقعنا على الإنترنت، وكل ما نشرناه يثبت كذب جابر ... إنه يقول مثلا: إن هناك 52 صحفيا فلسطينيا معتقلون في إسرائيل. وهذا غير صحيح. أقول: إننا يمكن أن نختلف في أمور معينة، لكن لا داعي لاختراع المشاكل.

* س: وما ردك على ما كتبه جابر بشأن اعتراض مركزكم على دعوة الدولة القطرية الرئيس السوداني البشير لحضور قمة الدوحة؟ .... إن هذه

الدعوة والرئيس السوداني لا علاقة لهما بالإعلام، والبشير ليس صحفيا، فلماذا أقحمت المركز وأصدرت احتجاجا يوم القمة؟

ج: المسألة بسيطة، فقد كنا قدمنا شكوى ضد إسرائيل في المحكمة الجنائية الدولية قبل حضور البشير هنا بأسابيع. وقد رحب الجميع بتحركنا هذا، ثم لما اعترضنا على حضور البشير كمتهم إلى الدوحة هاجمنا من سبق لهم ورحبوا بشكوانا إلى المحكمة الجنائية الدولية.

* س: لكن مرة أخرى أسالك: إن دعوة البشير قرار سياسي سيادي أصدرته الدولة القطرية، فما علاقة مركز الدوحة للإعلام بذلك ... فلا البشير صحفي ولا قطر مؤسسة إعلامية؟

ج: أردنا فقط أن نوضح أن المحكمة في نظر البعض محقة في محاكمة إسرائيل، لكنها عند الناس أنفسهم غير محقة في محاكمة أصدقائهم!!! البعض يعتبر المحكمة محقة في أشياء تعجبهم، وغير محقة فيما لا يعجبهم، كان اعتراضنا على دعوة البشير منصبا على رفض توقيع الجزاء على أشخاص بعينهم. اعتراضنا هو على عدم الحكم على المخطئ!!!

* س: ما تقييمك للعاملين القطريين في مركز الدوحة للإعلام؟ ولماذا طردت أو حاولت طرد الباحثة القطرية مريم الخاطر؟

ليست جنسية العاملين في المركز هي بيت القصيد. هناك ككل الجنسيات صحفيون وإعلاميون قطريون ممتازون وجديرون بالمناصب، وهناك منهم من ليسوا كذلك، وبخصوص مريم، أقول: إن هناك أشخاصا لا أريد التعامل معهم، وقد خولتني الشيخة موزة حق اختيار من يعملون

معي، البعض لا يملكون القدرات المطلوبة للعمل، وأؤكد لك أن الشيخة قالت لي: أنت تختار من تحب أن يعملوا معك... العاملون في المركز شأن يخصني أنا وحدي فقط، مريم الخاطر مجرد مساعدة، وهناك في المركز عشرة أشخاص قطريون لهم أهميتها نفسها. الشيخة لم تتحدث معي بشأنها في مقابلتي الأخيرة.

س: قل لي بصراحة: ما تقييمك للجزيرة؟

ج: تبقى وسيلة إعلامية مختلفة عن كل ما عداها في العالم العربي، إنها وسيلة لها حضورها في أماكن ليس لغيرها فيها وجود، الجزيرة ليست كاملة ولكن هل تعرف أنت وسيلة إعلام كاملة؟

إنهم في الجزيرة صحفيون يخاطرون بطريقة لا تصدق كي يؤدوا عملهم، وهي وسيلة إعلامية تواجه مشكلات مع الحكومات المتسلطة. ولكن الجزيرة في النهاية لا تتكلم عن دولة قطر!!!

* * *

وفيما يلي مقابلة أجريتها مع رئيس تحرير جريدة الشرق القطرية لمواجهته بما قاله مينار:

س: روبير مينار اتهمك بأنك تكتب أكاذيب ضده وضد المركز وأنك وزميلك رئيس تحرير جريدة الوطن تكتبون ما يأمركم به مسئولون في قطر لم يشأ أن يحددهم... ما تعليقك؟

ج: لقد ذكر أنهم في المركز دفعوا مساعدات مالية إلى مائتين وخمسين صحفيًا وجهة إعلامية، وأنا أطالبه بأن ينشر الأسماء اسما اسما ولا يكتفي

بمجرد ذكر عدد التحويلات المالية، إن كانت لديه الشفافية فليذكر هذه الأسماء.

وعلى سبيل المثال؛ لقد ذكر أن من بين من أرسل إليهم صحفيين صوماليين وهو يزعم أن كلا منهم تسلم خمسمائة دولار حسبما نشر على موقع مركز الدوحة لحرية الإعلام، لقد وصلتنا في جريدة الشرق شكوى موقعة من هؤلاء الصحفيين (ستة صحفيين) ينفون فيها الحصول على تلك المبالغ، وهو – أي: مينار- يذكر أنه أرسلها إليهم عبر شخص ما.

أما الصحفيون العراقيون ممن ادعى أنه أرسل إليهم مساعدات مالية فقد نفوا ذلك، وقد نشرت في مقالي اسم رئيس تحرير صحيفة عراقية ممن نفوا المسألة، بل ونفى عدد من زملائه الصحفيين العراقيين مجرد معرفتهم بالمركز.

أكرر مطالبتي له بنشر الأسماء، علما بأن بعض من اشتكوا لنا في الصومال قالوا: إنهم أصبحوا ملاحقين، وقد تعرضوا للخطر من جراء ما نشره مينار.

س: وبماذا تفسر صمت مينار وعدم نشره تلك الأسماء حتى الآن وهل تشكك في أمانته؟

ج: نحن لا نشكك في ذمته، ولكننا نريد معرفة الحقيقة، ونريد أن نعرف لماذا أخذ أوراقه، وترك المقر الذي منحته الدولة للمركز ليعمل من مكان آخر، هذا المكان المفروض أنه مخصص لسكنى من يضطرون للهروب من بلادهم كلاجئين صحفيين؟

وكيف له أن يعلن طرد نائبته الباحثة القطرية من المركز وليس هو من عينها في هذه الوظيفة؟ وأريده أن يحدد لي من هم هؤلاء القطريون العشرة المستمرون في العمل بالمركز بعد قراره طرد مريم الخاطر؟ إن القطريين الباقين لا يزيدون عن اثنين أو ثلاثة.

س: إن مريم الخاطر حسبما أعلم كاتبه صحفية فما تفسيرك لعدم تعليقها على ما فعله مينار بشأنها؟ وهل أرسلت إليك ما تتضامن به مع ما كتبته أنت؟

ج: إنها من الناحية الرسمية لا تزال في منصبها؛ فالدولة هي التي عينتها والدولة لم تطردها من وظيفتها، وهي تمارس وظيفتها من المقر الرسمي للمركز، هي لم تكتب في الموضوع برغم أنها كاتبة عمود صحفي بجريدة الراية، ولعلها لا تحبذ الدخول في معركة مع أحد.

س: لكن الرجل قد جلب لكم موافقة على تأسيس جمعية للصحفيين القطريين، كما حصل على وعد بتشكيل لجنة لتغيير قانون المطبوعات سيكون هو أحد أعضائها، فلماذا تنتقدونه؟

ج: موضوع الجمعية، نحن قبل أربع سنوات حصلنا على الموافقة عليه، وليس لمينار أي فضل في ذلك، وأنا شخصيا واحد ممن وضعوا نظامها الأساسي، أما قانون المطبوعات فقد ناقشه رؤساء التحرير منذ ثمان سنوات.

هو وضع ما يقول بأنه مشروع قانون للمطبوعات في قطر على موقع المركز ويطالب الزائرين بإبداء آرائهم فيه، وهذا أمر غريب، فهل يعقل أن قانونا للصحافة في بلد -كاليابان مثلا- يشبه قانونا للصحافة في بلد كقطر.

س: دعني أسألك: رأيك الصريح فيما يزعمه مينار من أن قطر يتنازعها طرفان: أحدهما يريد بقاء الأحوال على ما هي عليه، والآخر يريد التغيير.

ج: قطر الرسمية قرارها واحد، وليس هناك تنازع بين السلطات، ولم يحدث أن ظهر على السطح أي خلاف داخل مؤسسة الحكم، إذا كانت لدى مينار معلومات فليظهرها. لقد عرفت قطر الحرية قبل مجيء مينار بزمن.

سمو الأمير ألغى الرقابة على الصحف في عام 1995، وألغى وزارة الإعلام في عام 1996 كأول دولة عربية تفعل ذلك، ثم أنشأ قناة الجزيرة.

س: ما تفسيرك لما يقوله أو يفعله مينار إذن؟

ج: هو شخص ذو طبيعة ديكتاتورية يحب الظهور بمظهر البطل، انظر إلى خلافاته ومشكلاته عندما كان مسئولا في منظمة مراسلون بلا حدود. هذه شهاده نائبه الفرنسي جان كيلو جيوبو فيه ولقد اتهم مينار أيضا بالانتقائية في التعامل مع وسائل الإعلام التي كانت المنظمة تنتقدها.

س: هل أسفرت حملتكم على تصرفات مينار عن أي رد فعل رسمي من الدولة؟

ج: هي ليست حملة منا ولم يصلنا أي شيء من الدولة حتى الآن.

س: ولا من رئيس مجلس إدارة مركز الدوحة لحرية الإعلام الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني؟ ألم تتصل به بصفتك رئيس تحرير ؟

ج: لا، وأنا لم أتصل، فقد كتبت وجهة نظري، ومن المفروض أنه قرأها، وأرى أن: دوري كصحفي ينتهي عند ذلك.

س: هل نسقتم مع جريدة الوطن في شأن الانتقادات الموجهة إلى مينار؟

ج: لا بالطبع لم نسق. وأؤكد لك أننا كرؤساء تحرير نكتب ما يمليه علينا الضمير المهني، ولا نتلقى تعليمات من أحد، كما أؤكد أننا ليس بيننا وبين مينار أية مشكلات شخصية، إن مركز الدوحة لحرية الإعلام مؤسسة قطرية تدار بأموال قطرية وقد وجدنا عليه ملاحظات فتعاملنا معها، نريد للمركز ولمينار أن يلتزم بالشفافية وباللائحة التي تنص على احترام الأديان والتقاليد في هذه المنطقة فقد خالفها بدعوته إلى إتاحة المواقع الإباحية على الإنترنت ردا على طلب مسئول إماراتي إلى جوجل قبل عدة أسابيع.

نريد من مينار ألا يكون انتقائيا في تعامله مع وسائل الإعلام والدول العربية وإسرائيل والصين مثلا.

ثم ما شأن مينار والمركز بقرار قطر السياسي السيادي بدعوة البشير إلى حضور القمة العربية؟ هل يستطيع أن يعترض على قرار إسرائيلي من هذه النوعية؟

س: لكن الرجل ساند الصحفيين الفلسطينيين إبان العدوان على غزة؟

ج: لقد ذهب فقط إلى رفح المصرية وكان يستطيع كحامل لجواز سفر فرنسي أن يذهب إلى تل أبيب ويحتج أمام وزارتي الدفاع والخارجية الإسرائيليتين على منع الصحفيين الأجانب من دخول غزة لتغطية أحداث العدوان منها، ولماذا لم يحتج على قصف إسرائيل فضائية الأقصى، لماذا يذهب إلى باريس ويحمل لافتة، محتجا على زيارة الأسد ولا يحتج على زيارة مسئولين إسرائيليين، إن مينار متحامل على كل ما هو عربي وإسلامي، بل

وله أجندة غربية خاصة، فقد ساند حملة غربية مؤيدة للدالاي لاما إبان الدورة الأوليمبية نكاية في الصين.

س: وماذا بعد؟ ما توقعاتك للمركز ولمينار في بلدك؟

ج: مينار شخصيا لا يمثل لي أي هاجس، فما يهمني هو مصداقية المركز ومصداقية من يديرونه، سأواصل طرح الرأي، وإذا تم تصحيح الوضع سأكون أول المؤيدين.

س: وكيف يتم التصحيح في رأيك؟

ج: أن تكون هناك مصداقية وشفافية وحيادية في البيانات والتعامل مع القضايا والالتزام بالأهداف التي أنشئ المركز من أجلها.

س: هل تتوقع أن يتدخل مجلس الشورى القطري في المسألة على الأقل طالما أن ميزانية المركز من أموال الدولة؟

ج: لا أعتقد، ولكن هناك مجلس إدارة، وأنا أدعو أن يكون هناك مجلس محاسبة مستقل لتدقيق كيفية إنفاق أموال المركز وهل تصل فعلا إلى من يتم الإعلان عنهم.

س: ماذا تقول في اتهام مينار قناة الجزيرة بعدم التعامل مع أخبار قطر، برغم امتداحه القناة مقارنة بالإعلام العربي؟

ج: تهمة تجافي الحقيقة والمهنية. فقد تعاملت الجزيرة مع موضوع سحب الجنسية القطرية من بعض القطريين قبل عدة سنوات، وناقش أحمد منصور رئيس الوزراء على الهواء في ذلك الأمر. ومن الناحية المهنية نعرف

كإعلاميين محترفين أن أحداث قطر تغلب عليها المحلية، أي أنها: لا تهم شرائح عريضة من الرأي العام العربي والدولي من مشاهدي الجزيرة.

* * *

2- نص مقابلتي المتلفزة مع المدير الإقليمي السابق لمجلة "دير شبيجل" في الشرق الأوسط

مقدمة:

بدأ فولكارد فيندفور صحفيا إذاعيا في عام 1958 بقسم اللغة الألمانية في الإذاعة المصرية، وعمل قارئا للأخبار فمقدم برامج ثقافية وسياسية، واستمر بالإذاعة حتى هزيمة يونيو 67، بعد الحرب بشهر ونصف انتقل إلى بيروت؛ حيث التحق بالمعهد الألماني للاستشراق واللغة العربية، ثم عاد إلى ألمانيا ليصبح مراقب البرامج العربية في القسم العربي بالإذاعة الألمانية في كولونيا، ويقول: إنه كان قد اضطر للعودة إلى ألمانيا بسبب مرض والدته بالسرطان. ويضيف: وبعد وفاة والدتي قبلت عرضا قدمها من مجلة "دير شبيجل"، وكانت المجلة قبل الالتحاق الرسمي بها استعانت بي لإجراء حديث مع القذافي بعد ثورة الفاتح مباشرة، وقد سجلت المقابلة نفسها لحساب الإذاعة الألمانية أيضا بالاتفاق مع شبيجل، بعد ذلك عاد إلى بيروت ليفتتح هناك في أواخر 1973 أول مكتب لدير شبيجل في العالم العربي.

بقي فيندفور في بيروت حتى تدهورت الأوضاع فيها إلى الحرب الأهلية، وجرى اختطافه في يوم 2 يناير 1976 لفترة غير طويلة، ويرفض الرجل التطرق إلى أي تفاصيل عن واقعة الاختطاف قائلا: "إذا تكلمت عن هذا الموضوع فسوف لا أستطيع النوم ثلاث أو أربع ليال". وبعد ذلك

نقل مكتب المجلة الألمانية في يونيو 1976 إلى القاهرة، وقد بلغ سن الخامسة والستين في عام 2002 وكان يجب أن يتقاعد لكن إدارة التحرير مددت له حتى تاريخ إجراء هذه المقابلة الصحفية أي ربيع عام (2005).

الرجل لا يزال حتى تاريخ مثول هذا الكتاب للطبع مقيما في القاهرة، وقد احتفظ بمنصب مستشار المكتب الإقليمي لمجلة دير شبيجل في الشرق الأوسط. وقد تردد عليَّ في مقر إقامتي بالدوحة، والتقيت به أكثر من مرة، وسهلت له إجراء مقابلة صحفية أو أكثر مع شخصيات سياسية مهمة ممن كانوا يترددون على العاصمة القطرية في السنوات من 2005 إلى 2009، وقد طلب مني يوما أن أجري لهم مقابلة مع زعيم المحاكم الإسلامية. الذي أصبح بعد ذلك رئيس الصومال - الشيخ شريف شيخ أحمد، وتلقيت من فيندفور أسئلته فنقلتها، ومن ثم إجابات شيخ شريف إلى فيندفور عبر البريد الصوتي الإليكتروني. وجدير بالذكر أنني قدمت فيندفور إلى مسئولي الإعلام الخارجي في قطر باعتباره عميد الصحفيين الأجانب بالمنطقة، ولم يمض وقت طويل حتى حظي فيندفور بمقابلة صحفية مهمة مع أمير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني.

وفيما يلي نص مقابلة الصحفية معه:

س: زميلنا المراسل السابق للـ بي بي سي جيفري فيليبس وصفك بأنك ناصري بحكم معايشتك الناصرية في أزهى عصورها، ما مدى صحة ذلك وقد خدمت النظام الناصري إذاعيا، وهل تعاطفت مع التجربة الناصرية فعلا؟

ج: كنت في ذلك الوقت شابا ويومها كان العالم تحكمه الإمبراطوريات الاستعمارية أو تحديدا بريطانيا وفرنسا ثم أميركا، الشباب كله في العالم العربي كانوا في أيام ناصر ناصريين وقد كانت القاهرة مقرا لعشرات من منظمات التحرير في العالم الثالث، وبدون شك أنا تفاعلت جدا مع هذه الحركات، وأعتقد أن ملايين من الشبان كانوا مثلي متعاطفين مع الشعوب المناضلة من أجل الاستقلال والتحرير، لقد كان عبد الناصر من أهم الزعماء في العالم، لذلك كنت متعاطفا ومتفهما للتجربة، لكن بتقدم السن وكثرة السفر وباتساع الأفق وزيادة التجارب والخبرات والمعلومات، تكونت لدي رؤى مختلفة لأمور كثيرة، كان منها فترة حكم عبد الناصر.

تقييمي للتجربة في مصر: أنها ارتبطت برغبة المصريين في التخلص من القيود الاستعمارية والظلم قبل الثورة أو الانقلاب، كما كان يسمى، كان هناك ظلم شديد على المصريين، ولكن أيضا الاشتراكية أصبحت في نظري اشتراكية غير مدروسة النوايا كانت واضحة لتذويب الطبقات، لكن هذه المهمة لم يستطع الاتحاد السوفيتي النجاح في تنفيذها.

ولو كنت عرفت كل ذلك في ذلك الزمان ما كنت تفاعلت مع التجربة الناصرية. عموما الفترة كلها كانت زخما وتحررا من الاستعمار وولدت تجربة دول عدم الانحياز، وعقد مؤتمر باندونج، وظهر زعامات كنهرو وتيتو وسوكارنو مع جمال عبد الناصر.

س: أين كنت بالضبط إبان حرب 1967 ؟

ج: كنت في القاهرة، لا أزال أعمل بالقسم الألماني بالإذاعة المصرية.

س: كيف كان وقع هزيمة 67 عليك كمراقب أجنبي متعاطف مع التجربة الناصرية؟

كنت أستغرب الشعارات الساخنة التي انتشرت قبل الحرب، والتي كانت تدل على رغبة دخول الحرب ضد إسرائيل، ومادام الواحد كان يعمل في الإذاعة فمن الطبيعي أن يكون عنده معلومات، وكان لدي شبه علم أن الحرب لو اندلعت فسوف تتدخل أميركا فيها حماية لإسرائيل، بالطبع نعرف جميعا أن موقف أميركا كان قد تغير عما كان عليه أثناء حرب 1956. فحينذاك تدخلت أميركا وضغطت على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل للانسحاب من سيناء، السياسة الأميركية في 1967 تغيرت، وكان من المتوقع مساندة أميركا لإسرائيل في أي حرب تشن عليها، لذلك استغربت الشعارات الساخنة. كان تقييمي أنه لو وقعت حرب فستكون كارثة على مصر.

س: هل توقعت هزيمة مصر آنذاك؟

ج: نعم، فلم أكن أصدق شعارات تلك المرحلة ولو إلى حد ما على الأقل. كنت متأكدا أن الجيش المصري لو فرض ودخل تل أبيب فإن أميركا لا محالة ستتدخل ضده.

س: هل كنت تعرف ما يتردد عن قصص الفساد في الجيش؟

ج: لا.

س: كيف كنت تقيم كتابات محمد حسنين هيكل في تلك الفترة؟

ج: كان وهو على رأس الأهرام مستشارا مقربـا للـرئيس عبـد النـاصر، دوره لم يكن مفيدا في نظـري، فقـد كانـت نصـائحه لعبـد النـاصر في غـير محلها حسب رأيي، لم يكن تقديره للأوضاع في المنطقة والعالم جيـدا، وأنـا سألت هيكل في بيروت عام 1968 عن الهزيمة فرد قـائلا: إن سـيناء حفنـة من تراب ... واعتبرت أن كلامه هذا غير مسئول. لقد اعتبرت أنه استصـغر الهزيمة بشكل غير مسئول، ولـذلك كنـت اعتـبره شخصـا لـيس عـلى قـدر المسئولية، وأتذكر أنني في سؤالي له في بيروت قال العبارات السابقة، لكني أيضا أعتقد: أنه لم يستطع الاعتراف بـأي مـن أخطائـه في تقـدير المواقـف حتى يومنا هذا، يكفي أن تقرأ ما جاء في كتابه خريف الغضب، بعض مـا فيه صحيح لكن فيه أخطاء وأشياء غير مضـبوطة، أنـا لا أقلـل مـن شـأنه، فأنـا وكـل صـحفي نقـع في أخطـاء، لكنـي أعتقـد أنـه كـان أكـبر وأهـم مستشاري عبـد النـاصر، وهـو لم يحسـن عملـه وكـان يجـب عليـه تنبيـه الرئيس ناصر ويقنعه ألا يقدم على أشياء نتيجتها محسومة سلفا.

س: هل فيما أرسلت إلى "شبيجل" تكتب وفي ذهنك القارئ العادي أو الحكومة الألمانية أو لإرضاء السلطة؟

ج: حتى سنة 1967 كنت موظفـا في إذاعـة مصر، ولم أكـن معلقـا ولا محررا سياسيا، كنت فقط قارئا للنشرات التي تعد لي.

س: كيف استقبلت اسـتلام الـرئيس السـادات السـلطة في مصر؟ وقـد كنت متعاطفـا مـع عبـد النـاصر وموظفـا في جهـازه الإعلامـي، تعـرف أن السادات كما قيل وقتها. جاء ليمسح ما فعله ناصر بـ"أستيكة"؟

ج: كنت في تلك الفترة في بيروت، لكني التقيت بالسادات لأول مرة في صيف 1975، وأتذكر جيدا مدى إقبال السادات على كشف أشياء ووثائق المخابرات والكبت والتعذيب والسجون، وكنا نعرف في السنوات الأخيرة من حكم ناصر بعضا من تلك المخازي، وهذا ما أدى بي للإعجاب بالسادات، كنت قد تغيرت ضد ناصر شيئا ما، لما أحرق السادات شرائط تسجيلات المخابرات على الساسة والشخصيات المصرية، لقد جعلت هذه الأمور الناس تعجب بالسادات ولا تنسى أنه كان معروفا منذ ما قبل الثورة، كان رجلا يفكر جيدا ويحسب حساب الأمور، كان أسلوب حكمه يختلف عن أسلوب عبد الناصر كل الاختلاف.

س: نعود إلى ألمانيا بلدك وقد كانت مقسَّمة، وأنت تراسل إعلام بلدك هل كان هناك خطًّا أحمر بشأن إسرائيل ومعاداة السامية خاصة، مع الابتزاز الإسرائيلي لألمانيا؟ هل كنت تتلقى تعليمات في هذا الصدد من جريدتك؟

ج: لا، أبدا.

س: هل كتبت ونشرت الجريدة الألمانية التي تراسلها عن بحر البقر واعتداءات إسرائيل على مصر وغيرها في تلك السنوات؟

ج: نعم، كتبت بحيادية وكتبت عن القضية الفلسطينية بموضوعية، إن لنا موقفًا يفوق العرب أنفسهم، فـ(شبيجل) من الصعب أن تمارس عليها ضغوط، نحن مؤسسة صحفية مستقلة مهنية كبيرة، ممكن يحاول البعض حجب إعلانات بعينها، لكن هذا لا يؤثر علينا في نشر المقالات، من ذلك مثلا: ممارسات إسرائيل في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وكنا نكتب وننتقد القيادة الإسرائيلية، أذكر أننا نشرنا في أحد الأعوام عشرة مقالات عن

الدولة الفلسطينية المأمولة على أرض فلسطين، أظن أن أية مطبوعة عربية لم تفعل ذلك.

إنني أقول: نحن عندما نسمي الجريمة جريمة نكون غير منحازين.

س: كيف تقيم شخصية القذافي باعتبارك صحفيا التقيت بالرجل في بداياته الأولى عقب انقلاب الفاتح من سبتمبر، وما ظل يفعله منذ ذلك العام وحتى اليوم (ربيع 2005) بلا دبلوماسية رجاء؟

ج: هناك أمور معينة لم تتغير في شخصيته منذ أول مقابلة أجريتها معه.

س: مثل ماذا؟

ج: يتكلم بجرأة، ويقول كلاما عنيفا جدا، يتهم الآخرين بتهم ثقيلة بسهولة!!! وأذكر أن آخر مقال كتبه محمد حسنين هيكل في الأهرام كان هجوما وتهكما على معمر القذافي؛ حيث انتقده بشدة لتصرفاته، فقد كان القذافي يتطلع إلى أن يصبح رئيس دولة الوحدة المكونة من مصر وليبيا والسودان، القذافي طوال عمره يتطلع إلى مصر.

س: هل سبق لك أن انتقدت القذافي شخصيا؟

ج: ليس القذافي وحده فلا يوجد أي زعيم أو مسئول عربي أو أوروبي يخلو من أخطاء، ولابد من النقد، وإلا يصبح الصحفي عميلا!!!

س: أنا أتذكر أنك يوما ما إبان ما جرى من تغيرات في توجهات القذافي السياسية ذكرت لي أن: شركة علاقات عامة ألمانية تم توظيفها

بواسطة النظام الليبي للترويج للصورة الجديدة، ولعل ذلك كان بعد تسوية قضية لوكيربي... هل تتذكر اسم الشركة؟

ج: سمعت بالموضوع، لكني لم أكتب ذلك، فلم أتأكد من الخبر.

س: كيف تنظر إلى لبنان حاليا، وقد عشت سنوات فيه قبل استقرارك منذ 1976 في القاهرة؟

ج: أعتقد أن أهم مشاكل لبنان هي: أنه دولة عشائرية، تحكمها الطوائف والعشائر قبل أي شيء آخر، المذهب الديني أو السياسي يأتي دائما بعد العشيرة، الروح والنظرة العشائرية الضيقة لاتزال موجودة، وهي التي تتحكم في لبنان، السنوات منذ انتهاء الحرب الأهلية وحتى اليوم لم تشهد تغييرا للنظام العشائري.

س: حتى حزب الله؟ ألا تعتقد أن أعضاء حزب الله تخلصوا من الولاء العشائري؟

ج: نعم هو حزب غير عشائري، لكنه يرتبط بعلاقة واضحة مع إيران -كما تعلم- لا شك أن ظاهرة حزب الله جديدة في لبنان، وهي مرتبطة بوجود إسرائيل والمقاومة ومشاعر الظلم وبسوريا أيضا، وأعتقد أن حزب الكتلة الوطنية وريمون إده كانوا تجربة لحزب غير مذهبي وطني لبناني.

وعموما، تجربة حزب الله والشيعة فيها أيضا نوع من العشائرية ولا ننس أن ثمة خلافات بين حركة أمل بقيادة نبيه بري وبين حزب الله وحسن نصر الله برغم كون الاثنين شيعة.

س: ما هي رؤيتك لآفاق أو احتمالات حل القضية الفلسطينية كمراقب أجنبي عاش أكثر من خمسين عاما في الوطن العربي، مع الأخذ في الاعتبار ذلك الصعود المتنامي للعامل الديني على الجانبين؟

ج: أنا أرى أن: إسرائيل لن تتمكن من الجمع بين الأرض والسلام، لقد رأيت طيلة الخمسين سنة في هذه المنطقة أن الرأي العام الأوروبي يتغير من التأييد الكامل لإسرائيل إلى الانتقاد لها، ظهر ذلك في بحث أو استطلاع رأي علمي أجرته جامعتان أوروبيتان مؤخرا (عام 2005)، وقد اتضح أن: ستين بالمائة من الأوروبيين ممن لا علاقة لهم بالسياسة يعدون إسرائيل مسئولة عن الظلم والمشكلات الجارية في فلسطين والمنطقة، في الأعوام السابقة لم يكن هذا هو حال الرأي العام في أوروبا.

س: ألا ترى أن معيشة اليهود سابقا في جيتوهات عديدة في الدول العربية مع القبول بهم شعبيا كمواطنين لهم كافة الحقوق يعد وضعًا أفضل من تجمعهم في جيتو واحد كبير في فلسطين يجلب لهم كراهية كل الشعوب العربية المجاورة؟ أو ما قولك في المقارنة بين وضع اليهود وقد كانوا موجودين في بلادنا العربية يعيشون حياتهم كتجار ومواطنين وأحيانا يختار منهم وزراء، وبين وضعهم الحالي كمغتصبين للوطن الفلسطيني يناصبهم العرب والمسلمين العداء كدولة؟ إن اليهود حاليا جسم غريب في المنطقة وكل المنطقة ترفضه، لقد صدرتم لنا المشكلة اليهودية من أوروبا، المشكلة اليهودية صناعة أوروبية ألمانية ... هتلر كان اللاعب الرئيس فيها.

ج: بدون شك، لولا هتلر وما فعله في اليهود ما كان عدد كبير من اليهود قد عانوا وما كان حصل تأييد أوروبي لليهود بهذا الشكل.

اليهود لم يخضعوا في أي وقت لاضطهاد العرب، وأعتقد أنه برغم إصرار شارون وغيره على بناء وتوسيع المستوطنات لا يوجد سوى حل واحد هو العودة إلى حدود يونيو 1967، وحتى هذا يعد تنازلا من الفلسطينيين، وأي حل أقل من هذا لن يجدي في المشكلة، أي أن: الدولتين هما الحل لكل من الفلسطينيين واليهود.

أنا أعتقد أنه في النهاية سيصير اليهود أقلية وعادة ما تذوب الأقلية في الكيان الأكبر، حدث هذا في كثير من الحالات في العالم، إن أوروبا فيها دول تعدادها مليونان وأخرى فيها أربعة وثمانين مليونا كألمانيا، وأخرى فيها ستون مليونا كبريطانيا، الآن توصلت أوروبا إلى صيغة تعايش يكاد يذوب الصغار في وسط الكبار. إذا إسرائيل أجبرت على الاتفاقيات والمعاهدات الدولية وتعود إلى حدود 67 لو حدث ذلك سينتهي حلم إسرائيل الكبرى بالضرورة، وبعد ذلك أعتقد أن حتى الولايات المتحدة الداعمة والحامية لإسرائيل ستجد أن إسرائيل أصبحت في أمان ولا تحتاج للدعم والحماية. إن إسرائيل الكبرى المسيطرة المتجاهلة لقرارات الأمم المتحدة لن يصبح ممكنا.

س: هل تعتقد أنه في المدى المتوسط سينجح حل الدولتين؟ وفي المدى البعيد تضطر الظروف الديمغرافية الدولتين إلى أن يصبحا دولة واحدة؟

ج: نعم ... أنا لا أستبعد ذلك، والمنطلق هو العودة إلى حدود 67، أنا لست متفائلا ولكنني واقعي.

س: التقيت صحفيا بكثير من الزعماء العرب وقد أحصيت لي منهم: هواري بومدين ورؤساء جنوب اليمن والقذافي ونميري وعرفات والسادات وحسين وعبد الله بن عبد العزيز وعبد الله الثاني وعلي عبد الله

صالح وبشار الأسد وحسني مبارك، مَنْ مِنْ هؤلاء تحتفظ له بتقدير خاص؟

ج: أنور السادات، وقد كنت آخر من التقى به من الصحفيين الأجانب وذلك قبل أربعة أيام فقط من اغتياله، وحسني مبارك وقد سألته في مقابلة لم تزد عن ساعة ونصف ستين سؤالا أجاب عنها كلها، ومن العرب ياسر عرفات وبشار الأسد وهو برغم صغر سنه يمكن أن يتطور، ورأيي أنه يحتاج مزيدا من الوقت، وهواري بومدين.

س: ومن هم معارفك من النخب العربية على مدى السنوات الطوال التي قضيتها هنا في المنطقة العربية؟

ج: عميد القصة القصيرة محمود تيمور برغم فارق السن الكبير عندما تعرفت عليه، وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ، وقد كان بمثابة صديقي وليس مجرد معرفة سريعة عبر مقابلة صحفية.

وممن كانوا أصدقاء أيضا: نازك الملائكة العراقية، وعبد العزيز قاسم من تونس، وتعرفت على نزار قباني أيضا .

ومن أصدقائي المصريين بطرس غالي الذي تربطني به علاقة قوية، وميلاد حنا، وسلامة أحمد سلامة منذ كان مراسلا للأهرام في ألمانيا، ومن لبنان لي علاقة وطيدة إلى يومنا هذا بصاحب جريدة النهار غسان تويني، ومن النساء في مصر عرفت كثيرات كجيهان السادات وسهير القلماوي.

س: لقد عايشت صعود التيارات الإسلامية في الثلاثين سنة الماضية كيف تنظر إلى مستقبل هذه التيارات؟

ج: شيء طبيعي، فالخضوع الطويل للاستعمار وضغوطه وسيطرة الثقافات الأجنبية كانت لابد أن تؤدي إلى نوع من التحرر والنهضة الثقافية والدينية، فثمة علاقة أو رابطة بين كل هذه المسائل.

س: وهل ثمة علاقة أيضا بسقوط الاشتراكية؟

ج: أكيد.

س: وهل ثمة مستقبل للتيار الإسلامي في المنطقة في رأيك؟

ج: أعتقد ذلك. وكلما تفتح النوافذ تحدث التفاعلات وهذه ظاهرة صحية.

سؤال مهني مهم وصريح: يتصور البعض سواء ممن تسيطر على تفكيرهم نظرية المؤامرة - أو من لا تسيطر عليهم- أن أعدادا من المراسلين الأجانب يمارسون الجاسوسية وجمع المعلومات لحساب أجهزة المخابرات في بلادهم... ما رأيك أنت؟ ولعلنا نتذكر - أنت وأنا- أن مصر في العقد الأخير من القرن الماضي ضبطت وطردت بعض الصحفيين الأجانب؟

ج: أنا أعتقد أن دولا كبرى كأمريكا وروسيا والصين (لم يذكر ألمانيا بلده) لهم مصالح خاصة، وهم يستغلون وجود الصحفيين ويستفيدون منهم بأن يتخذون منهم عملاء... أكيد هناك بدون شك من يؤدي هذا الدور.

س: هل تعرضت أنت شخصيا لمشكلة من هذا النوع؟

ج: ذات يوم كتبت عني ذلك جريدة "المحرر" اللبنانية الساخرة التي كان يرأس تحريرها وليد أبو ظهر، ويمولها العراق في فترة من عهد صدام حسين - وقد سبق أن مولتها مصر أيام عبد الناصر- كتبت "المحرر" تتهمني بالنص أنني كمراسل "شبيجل" في بيروت أدافع عن مصالح جنوب أفريقيا العنصرية، ودعت الجريدة وقتذاك إلى مقاطعة الصحف الألمانية أو شيء من هذا، وكنت آنذاك أعرف الملحق الصحفي العراقي في بيروت فذهبت أشكو إليه، فأملى على رئيس التحرير وليد أبو ظهر وقد كان يومها في زيارة إلى مصر فكتب اعتذارا لي.

س: هل تصر على عدم الخوض في تفاصيل اختطافك في بيروت؟

ج: نعم، أنا لا أريد الخوض فيه.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

* * *

هذا الكتاب

إن التطورات المهنية والتقنية المتلاحقة في عالم الإعلام منذ منتصف العقد الأول في القرن الواحد والعشرين - أضحت تفرض على مراسلي الصحافة الأجنبية دورًا مختلفًا عن ذي قبل ، فلم يعد التضليل أو التعتيم ممكنًا بنفس السهولة التي شهدتها العقود الأخيرة من القرن العشرين ، وإن كانت وسائل الإعلام في الغرب استُخدمت كأداة من أدوات الصراع الدولي ، سواء بإرادتها أو بدون إرادتها في الماضي ، فلست أظن أن المستقبل المهني القريب يمكن أن يتسامح مع استمرار إساءة استخدام الإعلام والإعلاميين .

إن المراسل الأجنبي في بلادنا مطالب بكثير من التجرد من القناعات والأفكار المسبقة عن ثقافتنا الإسلامية بصفة خاصة ، وهو مطالب كذلك أن يسمو فوق المغريات ، وأن يمارس الصحافة خدمة للحقيقة وللرأي العام ، ولا يقبل أن يصبح ترسًا في ماكينة صراع المصالح بين الدول أو الهيئات .

وعلى الجانب الآخر ، فإن أصحاب الحضارة العربية الإسلامية مطالبون بالحرص على توضيح وتقديم ثقافتهم بأنفسهم ، وألا يتركوا فرصة للحوار والرد والتصحيح دون انتهازها.

المؤلف



